الإرادة
الحُرَّة

سام هاريس

بيت الحكمة
Bayt al-Hikma 2.0

الإرادة الحُرَّة

سام هاريس

A translation of “Free Will” © 2012 Sam Harris
Translation published by Bayt Al Hikma 2.0, a program of Ideas Beyond Borders
2018
Translated, Edited, and Proofread by Ureed

تتعلق مسألة الإرادة الحُرَّة بكل ما نهتم به تقريبًا: المبادئ الأخلاقية، والقانون، والسياسة، والدين، والسياسة العامة، والعلاقات الحميمية، والشعور بالذنب، والإنجاز الشخصي. يبدو بأن أغلب تجلّياتنا الإنسانية في حياتنا تعتمد على رُؤيتنا لغيرنا كأشخاصٍ بإرادةٍ مُستقلة، قادرين على الاختيار الحر. لو كان المجتمع العلمي على وشك الإعلان عن أن الإرادة الحُرَّة وهم، فإنه سيُثير حربًا ثقافية أشرسَ من تلك التي نشبت حول موضوع التطور؛ فَبدون الإرادة الحُرَّة سيُصبح المذنبون والمجرمون مُجرد آلاتٍ سيئةِ الضبط، وسيبدو أي تصورٍ للعدالة يُشدِّدُ على مسألة عقابهم (بدلًا من ردعهم أو إعادة تأهيليهم أو حتى مُجرد احتوائهم) أمرًا لا معنى له. كما أنّ أولئك الذين يعملون بجدّ، ويتبعون القواعد لا "يستحقون" النجاح بمعناه العميق. ليس من الصُدفة أن يجد مُعظم الناس أن هذه الاستنتاجات مُثيرة للاستهجان. إن المخاطر عالية.

في فجر يوم 23 تموز (يوليو) 2007، وصل ستيفن هايِس وجوشوا كوميسارجيفسكي، وهُما مُجرمان مأجوران، لمنزل الدكتور ويلّيام وجينيفر بيتيت في تشيشاير، وهي بلدةٌ هادئة تقع وسط ولاية كونيتيكت . وجدا الدكتور بيتيت نائمًا على الأريكة في شُرفة التشميس، ووفقًا لاعترافاتهما المسجلة، وقف كوميسارجيفسكي فوق الرجل النائم مُترددًا لبضع دقائق، قبل أن يهوي على رأسه ضربًا بمضرب البيسبول؛ مُدّعيًّا بأن صراخ ضحيته أيقظ شيئًا ما في داخله، وضرب بيتيت بالمضرب بكل ما أوتي من قوة إلى أن صَمَت.

بعدها، قام الاثنان بربط يَدَي بيتيت وقَدَمَيْه، ومن ثم صعدا للطابق العلوي للبحث في بقية أرجاء المنزل، واكتشفا وجود جينيفر بيتيت وابنتَيْها: هايلي البالغة 17 عامًا، وميكايلا البالغة 11 عامًا، نائمات. فأيقَظا الإناث الثلاثة، وفورًا، ربطوهن بأسرَّتهن.

وفي الساعة السابعة صباحًا، ذهب هايِس لمحطة الوقود، واشترى أربع غالونات [15 ليترًا تقريبًا] من البنزين، وفي الساعة التاسعة والنصف، ذهب بالسيارة مع السيدة بيتيت إلى المصرف لسحب مبلغ 15 ألف دولار نقدًا منه. وأشارت المحادثة التي جَرَت بين جينيفر وموظف المصرف بأنها لم تكن مُدركةً لإصابات زوجها، واعتقدت بأن آسريهم سيُطلقون سراح عائلتها من دون أذى.

وبينما كان هايِس وأم البنات خارج المنزل، روَّح كوميسارجيفسكي عن نفسه بأن التقط صورًا عارية لميكايلا بهاتفه الخلوي، واستمنى عليها. وعندما عاد هايِس مع جينيفر، قسَّم الرجلان

المال، وفكرا لبُرهةٍ فيما عليهما فعله. وقررا بأن على هايِس أن يأخذ جينيفر إلى غُرفة المعيشة ويغتصبها، وهذا ما فعله، ومن ثم خنقها، ومن الواضح بأن ذلك فاجأ شريكه.

عند هذه اللحظة، انتبه الرجلان إلى أن ويلّيام بيتيت تخلّص من قيوده وهرب، لذا شعرا بالذعر، وسكبا البنزين بسرعة في البيت وأضرما به النار. وعندما سألت الشُرطة كوميسارجيفسكي لمَ لمْ يفك وثاق البِنْتَيْن من سريرهما قبل إضرام النار، أجاب قائلًا: "لم يخطر ذلك ببالي". لقد تُوفيت الفتاتان اختناقًا بسبب استنشاق الدخان، فيما كان ويلّيام بيتيت الناجي الوحيد من الهُجوم.

عندما نسمع عن مثل هذه الجرائم، يشعر مُعظمنا تلقائيًا بأن رجالًا مثل هايِس وكوميسارجيفسكي ينبغي عليهما تحمل المسؤولية الأخلاقية عن تصرفاتهما. ولو كنا قريبين من عائلة بيتيت، لشَعَرَ العديد منا بأن قتل هذين الوحشين بأيدينا مُبررٌ تمامًا. هل سنهتم بأن هايِس قد أظهر مُنذ ذلك الحين علامات الندامة وحاول الانتحار؟ ليس تمامًا. ماذا عن حقيقة أن كوميسارجيفسكي اغتُصب مرارًا وتكرارًا عندما كان طفلًا؟ وفقًا لمذكراته اليومية، وبحسب ما يُمكنه التذكر، عرف بأنه كان "مُختلفًا" عن بقية الناس، محطّمًا نفسيًا، وعلى درجةٍ عالية من البُرود. كما ادعى بأنه صُعقَ من سُلوكه في بيت بيتيت: لقد كان لصًّا يحترف السطو على المنازل ليلًا، ولكنه لم يكُن قاتلًا، ولم يكن ينوي قتل أحد عمدًا، قد تبدأ مثل هذه التفاصيل في جعلنا نتوقف لبُرهة.

كما سنرى، ليس المقصود الحديث عمّا إذا كان بالإمكان الوُثوق بمُجرمَيْن مثل هايِس وكومسيارجيفسكي ليتحدثا بصدقٍ عن مشاعرهما ونواياهما: مهما كانت دوافعهما الواعية، فإنه لا يُمكن لهذين الرجلين أن يعرفا لمَ هُما كذلك. كما لا يُمكننا تقرير لماذا لسنا مثلهما. وبقدر ما وجدتُ شعورهما مُثيرًا للاشمئزاز، إلا أن علي الاعتراف بأنني لو كُنت في مكان أحدهما، ذرةً بِذَّرَة، فسأكون مثله: لا يوجد جُزءٌ إضافي مني يُمكنه أن يُقرر رؤية العالم بشكلٍ مُختلف، أو يُقاوم دوافع افتراس الآخرين. حتى لو كُنت تعتقد بأن كل إنسان يأوي في نفسه روحًا خالدةً، فإن مُشكلة المسؤولية ستبقى: لا يُمكنني أن أحظى بشَرَفِ حقيقة أنني لا أمتلك روح شخصٍ مُضطربٍ عقليًا. ولو كُنت حقًّا مكان كوميسارجيفسكي يوم 23 تموز (يوليو) 2007، إذ لو كان لدي مورثاته [الجينات] وخبرته الحياتية ودماغًا مُطابقًا (أو روحًا) في الحالة نفسها تمامًا –

لكنتُ تصرفت تمامًا كما فعل، لأنه، وببساطة، لا يوجد موقعٌ مُحترمٌ فكريًا لإنكار هذا. وعليه، يبدو دور الحظ حاسمًا.

وبالطبع، لو علمنا بأن كليْهما يُعاني من أورامٍ في الدماغ تُفسر تصرفهما العنيف، سيتغيّر حدسنا الأخلاقي جذريًا، لكنّ الاضطرابات العصبية تبدو مُجرد حالةٍ خاصة من الأحداث الجسدية التي تتحول إلى أفكار وأفعال. وعليه؛ سيبدو فهم الفسيولوجية العصبية للدماغ كصكّ براءة مثل اكتشاف ورم فيه، وكيف يُمكننا فهم حياتنا، وتحمّل الناس لاختياراتهم، بالنظر إلى الأصول اللاواعية لعقولنا الواعية؟

إن الإرادة الحُرَّة وهم. ببساطة، نحن لا نصنع إراداتنا. تنشأ أفكارنا ونوايانا من مُسبباتٍ مُضمرة لا نُدركها، ولا نُمارس عليها سُلطةً واعية. ليس لدينا الحُريّة التي نعتقد بأننا نمتلكها.

في الحقيقة، إن الإرادة الحُرة أكثر من وهمٍ (أو أقل)، وعليه لا يُمكننا جعلها مُترابطة فكريًّا، سواء أكانت إراداتُنا مُقررةً من مُسبباتٍ مُسبقة ونحن غير مسؤولين عنها، أم أنها نتاج صُدفة ونحن لسنا مسؤولين عنها. إذا كان اختيار أحدهم إطلاق النار على الرئيس مُقررًا من نمطِ مُعين من النشاط العصبي، والذي هو في المقابل نتاج مُسبّباتٍ مُسبقة– ربما مُصادفة سيئة الحظ من المورثات السيئة وطفولةٍ مُضطربة والأرق والتعرض للأشعة الكونية– فما الذي قد يعنيه القول بأن إرادتهُ "حُرَّة"؟ لمْ يصف أحدٌ قَط طريقة يُمكن من خلالها أن تنشأ العمليات العقلية والجسدية شاهدةً على وجود مثل هذه الحُريَّة، وأغلب الأوهام مصدرها أمورٌ أقسى من هذه.

يبدو بأن التصور الشائع للإرادة الحُرة يرتكز على افتراضين:

الأول، أن كل واحدٍ منا يُمكنه التصرف بشكلٍ مُختلف عما فعلناه في الماضي.

والثاني، أننا المصدر الواعي لمعظم أفكارنا وأفعالنا في الحاضر.

وبحسب ما سنراه بعد قليل، وعلى أيّ حال، فإن كلا الافتراضين خطأ .

ولكن الحقيقة الأعمق هي أن الإرادة الحرة لا تتطابق مع أي عاملٍ ذاتي حولنا، وسيُثبت لنا سبر غور النفس قريبًا التعارض في الفكرة بقدر تعارضها مع القوانين الفيزيائية. يبدو بأن الأفعال العدائية تنشأ لا إراديًا، ببساطة (سواء أكانت مُسبَّبة أم غير مُسبَّبة أو مُحتملة الانحراف، لا فرق في ذلك) ولا يُمكن تقفّي أثرها وصولًا لمنبعها في عقولنا الواعية. لحظة أو لحظتان من التدقيق

الذاتي العميق وقد تُلاحظ بأنك لم تعد تُقرر الفكرة التالية التي تفكر بها أكثر من الفكرة التالية التي سأكتبها.

الأصول غير الواعية للإرادة

نُدرك بأن هنالك جُزءًا ضئيلًا من المعلومات تُعالجها أدمغتنا في كل لحظة [1]. على الرغم من أننا نُلاحظ باستمرار تغيُّرات في خبراتنا– أفكارنا ومزاجنا وإدراكنا وسلوكنا وما إلى ذلك– فنحن لا نُدرك تمامًا الأحداث الفسيولوجية العصبية التي أدت لهذا. وفي الحقيقة، قد نكون شُهودًا سيئين للغاية للتجربة بحد ذاتها. غالبًا ما يُدرك الآخرون حالتك الذهنية ودوافعك، أكثر منك، بمُجرد النظر لوجهك أو الاستماع لنَبْرةِ صوتك.

عادةً ما أبدأ نهاري بكوبٍ من القهوة أو الشاي، وأحيانًا بكوبين. هذا الصباح، احتَسيت قهوةً (كوبين منها)، لماذا لم أشرب شايًّا؟ لست في موقعٍ يسمح لي بمعرفة السبب. أردت، اليوم، قهوةً أكثر مما أردت شايًّا. وكُنت حُرًّا في تناول ما أريد. هل فضّلت واعيًا القهوة على الشاي؟ لا. لقد تم الاختيار بواسطة الأحداث التي جرت في دماغي، التي لم يكن بإمكاني، كشاهدٍ واعٍ على أفكاري وأفعالي، تدقيقها أو التأثير عليها. يُمكن أن "أُغيّر رأيي" وأختار الشَّاي قبل أن يحصل شارب القهوة داخلي على ما يُريد؟ نعم، ولكن قد تكون هذه الرغبة ناتجةً أيضًا عن أسباب لاواعية. لماذا لم تظهر هذا الصباح؟ لماذا قد تظهر مُستقبلًا؟ لا أعرف. النوايا للقيام بأمرٍ ما وعدم القيام بآخر لا تنشأ في الشُّعور– بل، **تَظْهَر** في الشُّعور، كما أي فكرة أو رغبة قد تتعارض معها.

لقد اشتُهر عن بنيامين ليبت Benjamin Libet، عالم وظائف الأعضاء، استخدامه لجهاز الرسم الكهربائي للدماغ Electroencephalogram – EEG، لكي يُظهر أنه يُمكن الكشف عن النشاط في القشرة الحركية للدماغ قبل 300 ميلّي ثانية تقريبًا من شعور الشخص بأنه قرر التحرك [2]. ووسَّع مُختبرٌ آخر هذا العمل باستخدام التصوير بالرنين المغناطيسي

الوظيفي fMRI: حيث طُلب من الذين خضعوا للاختبار [العينات الخاضعة للاختبار] أن يضغطوا على زرٍ واحد من بين زرّين أثناء مُشاهدتهم "ساعة" تتكون من تسلسل عشوائي من الأحرف التي تظهر على الشاشة، وقالوا بأن الحرف كان ظاهرًا في اللحظة التي قرروا فيها الضغط على أحد الزرَّين. وجد القائِمون على التجربة بأن منطقتي الدماغ تحتويان معلومات حول أي زرًّ سيضغط عليه الخاضعون للاختبار قبل سبع إلى عشر ثوانٍ كاملة من القرار الذي اتخذوه عن وعي [3]. وحديثًا، أظهرت تسجيلاتٌ مُباشرةٌ من القشرة الدماغية أن نشاط 256 خلية عصبية كان كافيًا لتوقّع قرار الشخص للتحرك قبل 700 ميلّي ثانية من إدراكه لذلك، وبدقة توقُّع 80 بالمئة [4].

من الصعب التوفيق بين هذه النتائج مع الإحساس بأننا الخالقون الواعون لأفعالنا. إحدى الحقائق التي تبدو الآن لا تقبل الجدل: قبل لحظات من إدراكك ما ستفعل تاليًا- الوقت الذي يبدو فيه أن لديك شخصيًا الحُريَّة الكاملة للتصرف كما ترغب- يكون دماغك قد قرر فعلًا ما الذي ستفعله، وبالتالي تُصبح مُدركًا لهذا "القرار" وتعتقد بأنك تعمل على اتخاذه.

إن هذا التميّز بين النِظامَيْن "الأعلى" و"الأدنى" في الدماغ لا يُشفي الغليل، إذ لا أساهم، بصفتي الشاهد الواعي لتجربتي، بالشروع بالأحداث في قشرة دماغي في مُقدمة الجبهة أكثر مما أتحكم في نبضات قلبي. سيكون هنالك دائمًا بعض التأخير بين الأحداث الفسيولوجية العصبية الأولى التي تَلْتَمِعُ فيها فكرتي الواعية التالية والفكرة بحد ذاتها. وحتى لو لم توجد- حتى لو كانت جميع الحالات الذهنية مُتطابقة مع حالاتها الكامنة في الدماغ- فلا يُمكنني أن أقررّ بما سأفكر فيه أو ما أنويه تاليًا حتى تظهر الفكرة أو النِّية. كيف ستكون حالتي الذهنية التالية؟ لا أعرف، إنها تحدث وحسب. أين هي الحريَّة في ذلك؟

تخيَّل جهازًا رائعًا لتصوير الأعصاب يسمح لنا باكتشاف أرقّ التغيُّرات في وظائف الدماغ وتفسيرها. قد تُمضي ساعةً في التفكير والتصرف بحرية في المختبر، إلى أن تكتشف بأن العُلماء الذين يعملون على فحصِ دماغك كانوا قادرين على إنتاج سجلٍّ كامل لما ستُفكر به، وتقوم به، قُبيل لحظات من كل حدث. لنفتَرض مثلًا بأنك قررت قبل 10 دقائق و10 ثوانٍ تمامًا من دخول التجربة أخذ مجلةٍ من طاولةٍ قريبة، والبدء بقراءتها، ولكن سجل جهاز الفَحص أوضح

بأن هذه الحالة الذهنية قد نشأت قبل 10 دقائق و6 ثوانٍ، لا بل أن القائِمين على التَّجربة كانوا يعلمون أي مجلةٍ ستختار. لقد قرأت لفترةٍ من الوقت، ومن ثم مللت وتوقفت؛ يعرف القائِمونَ على التجربة بأنك ستتوقف قبل ثانيةٍ من ذلك، ويُمكنهم أن يُخبروك بأي جُملةٍ ستكون آخر ما تقرأ.

وهكذا سيكون الأمر مع كل شيءٍ آخر: لقد حاولت تذكّر اسم رئيس القائِمين على التجربة، ولكنك نسيته؛ ستتذكره بعد دقيقة على أنه "برينت Brent"، بينما اسمه فعلًا هو "بريت Brett". تاليًا، قررت الذهاب للتسوق لابتياع حذاءٍ جديد بعد أن تركت المختبر، ولكنّك أدركت في الفكرة الثانية بأن ابنك سيُغادرُ المدرسة باكرًا اليوم، لذا لن يكون أمامكَ وقتٌ كافٍ للذهاب للتسوق بعد كل هذا. تخيَّل ما الذي سيكون عليه الأمر عندما ترى السجل الزمني لهذه الأحداث الذهنية، إلى جانب المقطع المصوَّر لسُلوكك المعني، بما يُظهر أن القائِمين على التَّجربة يعرفون ما الذي ستُفكر به وتقوم به قُبيل أن تقوم به. وبالطبع، ستستمر بالشعور بالحُرِيَّةِ في كل لحظةٍ راهنة، ولكنّ حقيقة أن هنالك شخصًا آخر يُمكنه إخبارك بما أنت على وشك التفكير به والقيام به، سيكشف هذا الشعور على حقيقته: إنه وهم. إذا كانت قوانين الطبيعة لن تصدم غالبيتنا لأنها غير مُتوافقة مع الإرادة الحرة، فإنّ ذلك لأننا لم نتخيل كيف سيبدو السلوك البشري إذا فهمنا جميع علاقات العِلَّةِ والمعلُولْ.

من المهم إدراك أن ما أبنيه ضد الإرادة الحرة لا يعتمد على الفلسفة المادية (باختصار: افتراض أن الواقع ماديٌّ بَحْت). لا يوجد شك، بأن مُعظم، إن لم يكن كل، الأحداث الذهنية هي نتاج أحداثٍ مادية. إن الدماغ نظامٌ مادي [فيزيائي]، مرهونٌ بأكمله بقوانين الطبيعة، وهنالك جميع الأسباب التي تدفعنا للاعتقاد بأن التغيُّرات في حالته الوظيفية وبُنيته المادية تُحدد بالكامل أفكارنا وأفعالنا. ولكن حتى لو كان الذِّهنُ البشري مصنوعًا من مادة روحية، فلن يتغير أي شيء في حجتي. لن تمنحك العمليات اللاواعية للروح حرية أكثر مما ستمنحك إياه الفسيولوجية اللاواعية لدماغك.

إذا لم تكن تعرف ما ستقوم به روحك تاليًا؛ فأنت لا تتحكم بها. إنها حقيقة بَدَهِيَّة في جميع الحالات حيث يتمنى فيها المرء لو أنه بإمكانه الشعور أو التصرف باختلاف عمّا يفعل: فكّر

بملايين المسيحيين الملتزمين الذين صدف بأن أرواحهم شاذة جنسيًا، أو قابلين للسِمنَة أو يشعرون بالملل من الصلاة. مع ذلك، لن تكون الإرادة الحُرَّة أكثر وضوحًا عندما يقوم المرءُ تمامًا بما تمنى أن يفعله، وذلك عندما يستَذْكِر الأحداث الماضية ويتأمَّل فيها. الروح التي تسمح لك بالبقاء ضمن نظامٍ غذائيّ غامضةٌ مثل تلك التي تُغريك بتناول فطيرة الكرز على الإفطار.

بالتأكيد، هنالك فارقٌ بين الأفعال الاختيارية وغير الاختيارية، ولكنّ هذا لا يدعم الفكرة الشائعة عن الإرادة الحُرَّة (كما لا تعتمد عليها). تترافق الأفعال الاختيارية مع النوايا التي يتم الشعور بها لتنفيذها، بينما لا يكون الأمر كذلك في حالة الأفعال غير الاختيارية.

ومن نافلة القول، أن هنالك فرقًا ينعكس على مُستوى الدماغ، ويُخبرنا الكثير حول ما ينويه الشخص عن وعي. ويجعل من المنطقي مُعاملة الإنسان الذي يستَمْتِع بقتل الأطفال باختلافٍ عن ذلك الذي صدف أن صدم طفلًا بسيارته وقَتَلَه؛ لأن النوايا الواعية للأول تُعطينا الكثير من المعلومات عن كيفية تصرفه مُستقبلًا، ولكنّ المكان الذي تأتي منه النوايا بحد ذاتها، وما الذي يُحدد خواصها في كل لحظة، يبقى سرًّا غامضًا من النواحي الذاتية. سينتُج شعورنا بحُريَّة الإرادة من الإخفاق في تقدير هذا: لا نعرف ما ننوي القيام به إلى أن تظهر النية بحدِّ ذاتها. ولفهم ذلك، علينا أن ندرك بأننا لسنا مُؤلفي أفكارنا وأفعالنا بالطريقة التي يفترضها الناس عادةً.

بالتأكيد، لا تُقلل هذه البصيرة من أهمية الحرية الاجتماعية والسياسية. الحرية لفعل ما ينويه المرء، لا أن يفعل شيئًا آخر، ليست أقل قيمةً مما كانت عليه سابقًا. توجيه مُسدسٍ لرأسك لا يزال مُشكلةً تستحق الحلّ، بصرف النظر عن مصدر النوايا. ولكن، ببساطة، من المستحيل الربط بين فكرة أننا، بوصفنا كائنات واعية، مسؤولون بعُمقٍ عن خصائص حياتنا الذهنية والسلوك الناجم عنها، وعن الواقع.

فكر بما سيتطلبه الأمر لكي يكون لديك إرادة حُرَّة بالفعل. عليك أن تكون مُدركًا لجميع هذه العوامل التي تُحدد أفكارك وأفعالك، وستحتاج لأن تتمتع بسيطرة كاملة على هذه العوامل. ولكن هنالك مُفارقةٌ تُبطل الفكرة المحددة للحرية: ما الذي يُؤثر على المؤثرات؟ أهو مزيدٌ من المؤثرات؟ ليست ايٌّ من هذه الحالات الذهنية الطارئة تُمثل حقيقتك. أنت لا تُسيطر على العاصفة، كذلك لستَ تائهًا فيها، أنت العاصفة.

تغيير الموضوع

يُمكننا القول، بلا وجل، أن أحدًا لم يحاول التفكير بوجود الإرادة الحُرَّة لأنها تحمل، كفكرةٍ مُجردة، آمالًا عظيمةً. ويعود تحمّلنا لهذه الفكرة إلى حقيقة أن مُعظمنا نشعر بأننا نُؤلف أفكارنا وأفعالنا بحُريَّة (مهما كانت صعوبة تفسيرها من الناحِيَتَيْنِ المنطقية أو العلمية). تنشأ فكرة الإرادة الحُرَّة هذه من تجربة شعورية. ومع ذلك، من السهل التعامي عن هذه الحقيقة النفسية حالما نبدأ الحديث فلسفيًا.

في الأدبيات الفلسفية، يوجد ثلاث مُقاربات للفكرة: حتميّة وتحرريّة [ليبراتارية] وتوافقيّة. ترى كلٌّ من الحتمية والتحررية بأن سلوكنا لو كان يتحدد بأكمله بواسطة مُسببات باطنية، فإن الإرادة الحُرَّة وهم. (ولهذا السبب يُشار لهما كوجهات نظر "تعارضية").

يُؤمن مُعتنقو الحتمية بأننا نعيش في مثل هذا العالم، بينما يتصوّر التحرريون (لا علاقة لهم بالفلسفة السياسية التي تحمل الاسم نفسه) بأنه يجب وجود قوة إنسانية تعلو سحريًا فوق مُستوى المسببات المادية. يستدعي التحرريون أحيانًا كيانًا ماورائيّ– مثل الروح– كأداةٍ للإرادات التي تتصرف بحرية. فيما يدعي التوافقيون بأن الحتميين والتحرريين كلاهما يخلطان خطأً، وبأن الإرادة الحُرَّة تنسجم مع حقيقة الحتمية.

واليوم، تُعدّ الطريقة الفلسفية الوحيدة المقبولة لتأييد الإرادة الحرة هي أن تكون تكامليًا؛ لأننا نعرف أن الحتمية صحيحة في كل معنى يتعلق بالسلوك البشري.

تُحدد الأفعال العصبية غير الواعية أفكارنا وأفعالنا، وهي بذاتها تتحدد من مُسببات مُسبقة لا نُدركها ذاتيًا. مع ذلك، فإن "الإرادة الحُرَّة" التي يُدافع عنها التوافقيون ليست الإرادة الحُرَّة التي يشعر مُعظم الناس بأنهم يمتلكونها.

يدعي التوافقيون عمومًا بأن الشخص حُرٌّ ما دام مُتحررًا من أي إلزامٍ خارجي أو داخلي قد يمنعه من التصرف بناءً على رغباته ونواياه الفعلية. إذا أردت مغرفةً أخرى (سكوب) من

المثلجات ولا أحد يُجبرك على أكلها، عندئذٍ يُعتبر أكلك لمغرفةٍ ثانية من المثلجات دليلًا حاسمًا على حرية الإرادة لديك. مع ذلك تقول الحقيقة أن الناس يدعون أنّ لديهم ذواتًا أكبر من هذه. إن حدسنا الأخلاقي وشعورنا بالقوة الشخصية يرتكز على شُعور بأننا المصدر الواعي لأفكارنا وأفعالنا. وعندما نُقرر من نتزوج أو نحدّد أي كتاب سنقرأ، فنحن لا نشعر بأن أحداثًا سابقة أجبرتنا وأملت علينا أمورًا لا نتحكّم بها. الحرية التي نفترضها لأنفسنا، وننسبها للآخرين بسهولة، تبدو بأنها تصرف النظر عن تأثير الأسباب الباطنية غير الشخصية. والحركة التي ترى أن مثل هذه المسببات فعالة جدًا– كما قد يكشف أي حسابٍ مُفصل للفسيولوجيا العصبية للفكر والسلوك الإنساني– لا تمكنّنا من تحديد شمّاعةٍ معقولةٍ ظاهريًا لنُعلقَ عليها أفكارنا التقليدية عن المسؤولية الشخصية [5].

ما الذي يعنيه القول بأن المغتصِبين والقَتَلة يرتكبون جرائمهم بإرادتهم الحُرَّة؟ إذا كانت هذه الجُملة تعني شيئًا، فإنها يجب أن تعني بأنه يُمكنهم التصرُف بشكلٍ مُختلف، وليس على أساس المؤثرات العشوائية حول ما لا يُسيطرون عليه، بل لأنهم– بوصفهم عناصر واعية– كانوا أحرارًا بالتفكير والتصرف بطرقٍ أخرى. أن تقول بأنهم أحرارٌ بأن لا يغتَصِبوا وأن لا يقتلوا كالقول بأنّ بإمكانهم مُقاومة دوافع القيام بذلك (أو يُمكنهم تفادي الشعور بهذه الدوافع تمامًا) مع الكون، بما في ذلك أدمغتهم، بنفس الحالة تمامًا التي كانت باللحظة التي ارتكبوا فيها جرائمهم. وافتراض أن هؤلاء المجرمين العنيفين لديهم مثل هذه الحرية، يجعلنا نلومهم عكسيًا على أفعالهم. ولكن من دونها (أي الحرية) يتلاشى المكان الذي نُصوب عليه لومنا فجأةً، وحتى أكثر المضطربين العقليين المخيفين سيبدون ضحايا لأنفسهم. ويختفي اللوم تجاههم في اللحظة التي نرى فيها دَفْقَ الأسباب التي تسبق قراراتهم الواعية، والتي تعود إلى طفولتهم وما قبلها.

لقد قدم التوافقيون أدبًا غزيرًا في إطار سعيهم للتمكُّن من هذه المشكلة [6]. وتُشبه النتيجة علم اللاهوت، أكثر من أي مجالٍ آخر من مجالات الفلسفة الأكاديمية. (أشك في أن هذا ليس صُدفةً. كانت الجُهود تهدف أساسًا في أن لا تسمح لقوانين الطبيعة بتجريدنا من الوهم اللذيذ)

ووفقًا للتوافقيين، إذا أراد إنسانٌ ارتكاب جريمةٍ، وفعلها بسبب رغبته، فإن أفعاله تشهد على حُريَّة الإرادة لديه. ومن كلا الناحيتين، الأخلاقية والعلمية، يبدو هذا سطحيًا بشكلٍ مُتعمّد.

لدى الناس رغبات مُتعارضة، وتبدو بعض الرغبات مَرَضِيَّة (وهي غير مُحبذَّة) حتى بالنسبة لأولئك الذين يتحكمون بها. وأغلبهم محكومون بالعديد من الأهداف والطّموحات المتضاربة المشتركة: تُريد إنهاء عملك، ولكنك ميّالٌ أيضًا لإيقافه بهدف اللعب مع أطفالك. تطمح للإقلاع عن التدخين، ولكنك تتوق لمجِّ لُفافة تبغٍ أخرى. تُكافح سعيًا لادّخار المال، ولكنك واقعٌ أيضًا تحت إغواء شراء حاسب آليّ جديد. أين هي الحُريَّة عندما تتفوق إحدى هذه الرغبات المتعارضة على الأخرى بطريقةٍ يتعذَّر تفسيرها؟

إن مشكلة التوافقية تمتد لأعمق من ذلك، مع ذلك؛ أين هي الحُريَّة في أن تُريد ما تُريده من دون أي صراعٍ داخليّ على الإطلاق؟ أين هي الحُريَّة في أن تكون راضيًا تمامًا بأفكارك ونواياك والأفعال اللاحقة، بينما هي نتيجةٌ لأحداث مُسبقة لا يد لك في وجودها إطلاقًا؟

على سبيل المثال، شربتُ للتو كوبًا من الماء، وشعرت بالسلام التام لاتخاذي قرارًا بذلك. لقد كُنتُ ظمآنًا، وشُرب الماء ينسجم تمامًا مع رُؤيتي لما أريد أن أكونه عندما أحتاج لشراب. شربت جَعَةً في وقتٍ سابقٍ من النهار، ورُبما أشعر بالذنب؛ ولكن شُرب كأس من الماء في أي ساعةٍ لا يتبعه اللوم. وأنا راضٍ عن نفسي تمامًا. أين الحُريَّة في ذلك؟ قد يكون ذلك صحيحًا لو رغبتُ في شيءٍ آخر، لفعلته، ولكني رغم ذلك مُضطرٌ لفعل ما أريد فعلًا. ولا يُمكنني، مُقدمًا، تحديد رغباتي، أو تقرير التي ستكون نافِذَةً. ببساطة، يمدُني الكون بالحياة الفكرية. لمَ لمْ أُقرر شُرب كوب عصير؟ لم تخطر الفكرة على بالي. هل أنا حُرٌّ في القيام بما لم يخطر على بالي؟ بالتأكيد لا.

ولا يوجد طريقة يُمكنني فيها التأثير على رغباتي: ما هي أدوات التأثير التي سأستخدمها؟ رغبات أخرى؟ لكي أقول بأنني قُمت بأمورٍ مُختلفة عمّا أردته يعني ببساطةٍ القول بأنني سأودُّ العيش في كونٍ مُختلف إن كُنتُ في كونٍ مُختلف. لم تبلغ التوافقية حدًّا أكثر من التأكيد على المبدأ التالي: الدُمية حُرَّة ما دامت تُحب الخُيوط التي تُحركها.

التوافقيون، مثلَ صديقي دانيال دينّيت Daniel Dennett [7]، يُصرّون على أنه حتى لو كانت أفكارنا وأفعالنا نتاج أسبابٍ لاواعية، فإنها لا تزال أفكارنا وأفعالنا. وأن أي شيءٍ يفعله دماغُنا أو يُقرره، سواء أكان عن وعيٍ أم لا، فإنه شيءٌ قُمنا به أو قررناه. ولا تُلغي حقيقة أنه لا يُمكننا أن نكون مُدركين ذاتيًا- بشكلٍ دائم- لأسباب أفعالنا- لا تلغي إرادتنا الحُرَّة؛ لأن اللاوعي الفسيولوجي العصبي لدينا يُمثلنا "نحن" كما هو الحال مع أفكارنا الواعية. تمعَّن بالتالي، من توم كلارك Tom Clark، من مركز المذهب الطبيعي:

هاريس مُحقٌّ طبعًا بأننا لا نملك وصولًا واعيًا للعمليات الفسيولوجية العصبية التي تقوم عليها خياراتنا. ولكن، وكما يُشير دينّيت غالبًا، هذه العمليات خاصةٌ بنا، تمامًا كما نحن ما عليه بوصفنا أشخاصًا، تمامًا كما تُمثلنا "نحن"، وكما وعينا الواعي. لا ينبغي أن نفصل أنفسنا عن فسيولوجيتنا العصبية وافتراض أن الذات الواعية، التي يعتقد هاريس (وربُما، كما يعتقد آخرون أيضًا) أنها تُكوّن نفسنا الحقيقية، والتي تخضع لرحمة خلايانا العصبية. بدلًا من ذلك، فإننا، بوصفنا أفرادًا مُتشابهين، نتكوّن من عملياتٍ عصبية (من بين أمورٍ أخرى)، وبعضها يدعم الوعي، وبعضها لا يدعم. وبذلك هي ليست وهمًا، كما يقول هاريس، إننا نحن مُؤلفو أفكارنا وأفعالنا؛ لسنا مُجرد شهودٍ على ما تَخْتَلِقُهُ لنا السببية. ونحن أشخاص قادرون جسديًا على التصرف بشكلٍ مدروسٍ والاختيار والعمل، حتى لو لم يكن الوعي يتولى زمام المهمة تمامًا. لذا فإن شعور التأليف والسيطرة صادِقَان.

علاوةً على ذلك، تُعدّ العمليات العصبية التي تدعم الوعي (بطريقةٍ ما، هي المشكلة الأصعب للوعي) أساسيةً للاختيار، ذلك أن الأدلة تُشير وبقوة إلى أنها تترافق مع تصرفات مرنة وتكامل في المعلومات في خدمة السيطرة على السلوك. ولكن هنالك شكًّا في أن الوعي بحدِّ ذاته (الخبرة الاستثنائية) يُضيفُ أي شيءٍ لهذه العمليات العصبية في السيطرة على الأفعال.

صحيحٌ أن البشر لا يمتلكون إرادة حُرَّة ذات سببية مُتضادة، لسنا آلهةً صغيرة ذاتية السببية. ولكننا حقيقيون بقدر العمليات الوراثية [الجينية] والبيئية التي خَلَقَتْنا، والمواقف التي اتخذنا فيها

خيارات. إن آلية التباحُث التي تدعم التصرفات النافذة حقيقيةٌ فعلًا، وتُؤثر سببيًا على أي عملية أخرى في الطبيعة. لذا ليس علينا الحديث كأننا عناصر حقيقيون من أجل تدبير وهم قوة مُفيد من الناحية التحفيزية، وهو الأمر الذي يُرجح هاريس بأننا نفعله في نهاية مُلاحظاته عن الإرادة الحُرَّة. يُمكن للقوة التغلب على الحتمية، ولا مُشكلة في ذلك.

يُوضح هذا– بطريقةٍ مُمتازة– الفرق بين وجهة نظر دينّيت ووجهة نظري (دينّيت يُوافق [9]). وكما قُلتُ آنفًا، أعتقد بأن التوافقيين يُغيُّرون الموضوع، كما هو الحال مع دينّيت: إنهم يُقايضون حقيقةً نفسية– الخبرة الذاتية لكوننا عناصر واعية– بفهمٍ مُتَخَيَّلٍ لأنفسنا. إن هذا بمثابة فخ للإغواء. الحقيقة النفسية هي أن الناس يشعرون بأنهم مُتطابقون مع قناةٍ مُحددةٍ للمعلومات في أذهانهم الواعية. يُؤكد دينّيت ببساطة أننا أكثر من هذا؛ أننا نسيرُ بالتوازي مع كل ما يجري داخل أجسادنا، سواء أكُنا واعين به أم لا. ويُشبه هذا القول بأننا مصنوعون من غُبار النُّجوم، ونحن كذلك، لكننا لا نشعر بأننا كغُبار النُّجوم. ومعرفة أننا من غُبار النُّجوم لا تُوجه حدسنا الأخلاقي أو نظامنا للعدالة الجنائية [10].

تتخذ في هذه اللحظة عددًا لا محدودًا من "القرارات" غير الواعية بواسطة أعضاءٍ أخرى غير دماغك، لكنها ليست أحداثًا تشعر بأنك مسؤولٌ عنها. هل تُنتج خلايا الدم الحمراء والخمائر [الإنزيمات] الهضمية في هذه اللحظة؟ بالطبع، جسدك هو من يفعل هذه الأشياء، لكن ماذا لو "قرر" فعل غير ذلك، ستكون ضحيةً لهذه التغيرات، أكثر من كونك سببها. إن القول بأنك مسؤولٌ عن كل ما يجري تحت جلدك لأنه "أنت" ادعاءٌ لا علاقة له إطلاقًا بالشعور بالقوة والمسؤولية الأخلاقية التي جعلت من فكرة الإرادة الحُرَّة مُشكلةً مُستمرةً للفلسفة.

يفوق عدد الجراثيم [بكتيريا] في جسمك عدد الخلايا البشرية. في الحقيقة، 90 بالمئة من الخلايا داخل جسمك هي جراثيم [ميكروبات] مثل "إي كولاي" (وتنتمي 99 بالمئة من المورثات الوظيفية في جسمك لهم). تُؤدي العديد من هذه الكائنات الحية وظائف ضرورية؛ يُمكن القول

بإنهم "أنت" بمفهومٍ أوسع. هل تشعر بتطابقٍ معهم؟ أخلاقيًا، هل ستكون مسؤولًا عنهم إن أساؤوا التصرف؟

شعور الناس (أو هكذا يفترضون) أنهم مُؤلفو أفكارهم وأفعالهم أمرٌ وهمي. سيُصابون حتمًا بالدهشة لو تمكّنا من الاطلاع على اختياراتهم الواعية، بواسطة جهاز فحص للدماغ قبل ثوانٍ من إدراكهم لها؛ لأنه سيُشكل تحديًا مُباشرًا لوضعهم كعناصر يُسيطرون على حياتهم الداخلية، نعلم أنه يُمكننا إجراء مثل هذه التجربة، من الناحية المبدئية على الأقل، وسيشعر الذين خضعوا للاختبار بأننا نقرأ أفكارهم (أو نُسيطر عليه) إذا ضبطنا الجهاز بشكلٍ صحيح. [11]

نعلم، حقيقة الأمر، أننا نشعر أحيانًا بالمسؤولية عن أحداثٍ ليس لنا تأثيرٌ سببي عليها. ويُمكن توجيه الناس عبر استخدام الشكل الصحيح من التلاعب التجريبي، نحو الاعتقاد بأنهم قصدوا القيام بفعلٍ ما، بينما لم يختاروا أو يُسيطروا على تحركاتهم. وفي إحدى التجارب، طُلب من الخاضعين للاختبار اختيار صورٍ على شاشة باستخدام مُؤشر الحاسب الآلي، لقد مالوا للاعتقاد بأنهم وجهوا المؤشر عمدًا إلى صورةٍ مُحددة، حتى عندما كانت تحت السيطرة التامة من شخصٍ آخر، طالما سمعوا اسم الصورة في اللحظة السابقة لتوقف المؤشر [12]. يُمكن إعطاء الأشخاص سريعي التأثّر بالتنويم المغناطيسي اقتراحات مدروسة لتنفيذ مهامٍ مُختلفة، وعندما سُئلوا لمَ فعلوا هذه الأمور، تحدث العديد منهم بلا تكلُّف؛ مُقدمين مُبرراتٍ لسلوكهم لا علاقة لها بالسبب الحقيقي. لا شك بأن خاصية القُوة لدينا قد تتجه اتجاهًا خطأً تمامًا. وما أقوله بأنها خطأ دائمًا.

تخيل ادعاء شخصٍ بأنه لا يحتاج إلى تناول أي نوعٍ من الطعام – بدلًا من ذلك، يُمكنه العيش على الضوء. يخرج علينا، من وقتٍ لآخر، مُعلم يوغا هندي مُتباهيًا بذلك، أكثرهم من أجل السُخرية من المتشككين. لا داعي للقول أنه لا يوجد سببٌ يدفعنا لأن نأخذ مثل هذه الادعاءات على محمل الجدّ، ومهما كانت نحافة مُعلم اليوغا. ومع ذلك، يُمكن لتوافقي، مثل دينّيت، إيجاد صلةٍ بالدفاع الذي قدمه هذا المحتال: الرجل يعيش على الضوء– مثلنا جميعًا– لأنك عندما تتتبّع مصدر أي طعامٍ، ستصل إلى شيءٍ ما يعتمد على التركيب الضوئي. عندما

نأكل لحمًا بقريًا، فإننا نتناول العُشب الذي أكلته البقرة، والعُشبُ استهلك ضوء الشمس لينمو. إذًا، مُعلم اليوغا ليس كاذبًا، في نهاية المطاف. لكنها ليست القُدرة التي رَوَّجَ لها مُعلم اليوغا، وما يزال ادعاؤه الفعلي مُضلِّلًا (أو وهميًا). هذه هي المشكلة مع التوافقيين، تحلّ مُشكلة "الإرادة الحُرَّة" من خلال تجاهلها.

كيف يُمكننا أن نكون "أحرارًا" كعناصر واعيةٍ إذا كان سبب كل شيءٍ ننويه عن وعي أحداثًا في دماغنا لم ننوِها، ولم نكن على وعيٍّ تامٍّ بها؟ لا يُمكننا ذلك. القول بأن "دماغي" قرر أن يُفكر أو يتصرف بطريقةٍ مُعينة، سواءً أكان عن وعي أم بلا وعي، وأن هذا هو أساس حُريتي، تجاهل المصدر الأول لإيماننا بالإرادة الحُرَّة: الشعور بالقوة الواعية. يشعر الناس أنهم المؤلفون لأفكارهم وأفعالهم، وهذا هو السبب الوحيد حول ما سيُظهِرالإرادةَ الحُرَّةَ مُشكلةً تستحق الحديث عنها.

العلَّةُ والمَعْلُول

نعلم، من الناحية الفيزيائية، أنه يُمكن اختصار كل فعلٍ إنساني إلى سلسلةٍ من الأحداث غير الشخصية: تُسجَّل المورثات، وترتبط النواقل العصبية بمستقبلاتها، وتنقبض الألياف العضلية، ويضغط زيدٌ [جون دو John Doe] من الناس زناد مُسدسه. إلا أنه من وجهة الحس العام تجاه أفكار القوة الإنسانية والمبادئ الأخلاقية التي نحتفظ بها، يبدو بأن أفعالنا لا يُمكن أن تكون مُجرد نتائج شرعية لتكويننا الحيوي [البيولوجي] أو ظروفنا أو أي شيءٍ آخر قد يُؤدي بالآخرين للتَّنَبُؤِ بهم (أي بأفعالنا). وعليه، يأمل بعض العُلماء والفلاسفة أن تتمكن الصدفة أو الارتياب الكَمِّي من إفساح مجال للإرادة الحُرَّة.

على سبيل المثال، لاحظ الأحيائي [عالم البيولوجيا] مارتن هايسنبرغ Martin Heisenberg بأن عملياتٍ مُعينةً في الدماغ، مثل عملية فتح قنوات الدَّالِفْ [الأيونات] وغلقها وتحرير الحُوَيصِلات المترابطة، يحدث عشوائيًا، وبناءً عليه لا يُمكننا تحديدها بالمثيرات البيئية. وهكذا، يُمكن اعتبار مُعظم سلوكنا بأنه "ذاتي النشوء". ويتصور أن أساس حُريَّة الإنسان

تكمن ها هنا. ولكن كيف يُمكن لأحداثٍ من هذا النوع أن تُبرر الإرادة الحُرَّة؟ تعني عبارة "ذاتي النشوء" في هذا السياق- فقط- بأن أحداثًا مُعينةً تنشأ في الدماغ.

لو كان قراري بتناول كوب قهوةٍ ثانٍ صباح اليوم نتاج تحريرٍ عشوائي للنواقل العصبية، فكيف يُمكن اعتبار النشأة الغامضة للحدث كمُمارسة حُرَّة لإرادتي؟ لا يُمكنني تحمل مسؤولية أحداثٍ تحصل صُدفةً من خلال تحديد واحدٍ منها. وإذا كانت سلوكيات مُعينة لديّ تنتج حقًّا عن الصُدفة، فذلك يجب أن يُشكل مُفاجأةً، حتى بالنسبة لي. كيف يُمكن لكمائن عصبية من هذا النوع أن تجعلني حُرًّا؟

تخيَّل كيف ستكون حياتك إذا ما كانت جميع أفعالك ونواياك ومُعتقداتك ورغباتك "ذاتية النشوء" عشوائيةً هكذا. ستبدو بأنك بالكاد لديك عقلٌ أساسًا. وستعيش كمن ضربته عاصفة رياحٍ داخلية. تتواجد الأفعال والنوايا والمعتقدات والرغبات فقط ضمن نظامٍ تحكمه جديًّا أنماطٌ سلوكية وقوانين إثارة — استجابة.

إن إمكانية الاستدلال مع البشر الآخرين — أو، في الواقع، إمكانية معرفة أن سُلوكهم وطرائق كلامهم يُمكن فهمها أساسًا- تعتمد على الافتراض بأن أفكارهم وأفعالهم ستسير مُذعنةً على سكك قُضبان واقعٍ مُشترك. وعلاوةً على ذلك، يبقى هذا الأمر صحيحًا عند مُحاولة فهم سلوك أحدهم الشخصي. وضمن هذا الحدّ، تحول أحداث هايسنبرغ "ذاتية النشوء" دون وجود عقلٍ على الإطلاق.

لا يُتيح الغُموض الخاص بميكانيكا الكم مُرتكزًا: لو كان دماغي حاسبًا آليًا كميًّا، من المُرَجَّحْ أن يكون دماغ الذبابة حاسبًا آليًا كَمِيًّا أيضًا؛ فهل يتمتَّع الذُباب بالإرادة الحُرَّة؟ من غير المُرَجَّح أن يُصبح التأثير الكَمِّي ملحوظًا أحيائيًّا في أيِّ حالة. إنها تُؤدي دورًا في التطور لأن الأشعة الكونيَّة، والجُسيمات الأخرى عالية الطاقة تُسبب طفراتٍ نُقطِية في الـ "دنا" [الحمض الريبي النووي منقوص الأُكسجين] (إن سُلوك هذه الجُسيمات المارَّة عبر نُواة الخليّة محكومةٌ بقوانين ميكانيكا الكَمّ). وبناءً على ذلك، سيبدو التطور غير قابلٍ للتوقع مبدئيًا [13]. لكن، ينظر قلةٌ

من عُلماء الأعصاب للدماغ على أنه حاسبٌ آليٌّ كميّ. وحتى لو كان الأمر كذلك؛ فغموض الكَمّ لا يُقدم شيئًا لجعل مفهوم الإرادة الحُرَّة واضحًا من الناحية العلمية. وفي مُواجهة أيّ استقلالٍ حقيقي عن الأحداث السابقة، فإن كل فكرةٍ وفعلٍ سيرقى لدرجة القول: "لا أعلم ما الذي أصابني".

لو كانت الحتميّة صحيحة، فهذا يعني بأن المستقبل قد حُدِّدَ؛ ويتضمن هذا جميع حالات عُقولنا المستقبلية، وسلوكنا التالي. وبقَدَرِ خُضوع قانون العِلَّة والمعْلُوليَّة للاحتمية- الكَمّ أو ما إلى ذلك- فإنه لا يُمكننا أن ننسب لأنفسنا الفَضلَ لما يحصل. لا يوجد مجموعة من هذه الحقائق التي تبدو مُتوافقةً مع الفكرة الرائجة عن الإرادة الحُرَّة.

الاختيارات، الجهود، النوايا

عندما نُفكر في السلوك الإنساني، يبدو الاختلاف بين الفعل عن سبق إصرار والمتَعَمَّد وذلك العرضي ببساطة مهمًا للغاية. وكما سنرى، يُمكن الحفاظ على هذا الاختلاف- ومعه الحفاظ على أهَّم الشؤون الأخلاقية والقانونية لدينا- بينما نستبعد فكرة الإرادة الحُرَّة على نحوٍ حاسم.

هنالك حالات مُعينة من الوعي، يبدو أنها تظهر تلقائيًا، خلف مجال نوايانا. بينما تبدو حالات أخرى ذاتية النشأة ومقصودةً وخاضعة لإراداتنا. عندما أسمع حفيف أوراق الأشجار خارج نافذتي، فإنها تُؤثر على وعيي وحسب: لم أجعلها تحصل، ولا أستطيع إيقافها ساعة أشاء. يُمكنني أن أحاول إبقاء الصوت خارج ذهني من خلال التركيز على شيءٍ آخر- على سبيل المثال، كتابتي- ويبدو هذا التصرف، بتوجيه الانتباه، مُختلفًا عن سماع صوت ببساطة. إنني أقوم به ضمن حدودٍ مُعينة، يبدو بأني أختار ما أنتبهُ له. يقتحم ذهني صوت حفيف أوراق الأشجار، لكن يُمكنني السيطرة على انتباهي في اللحظة التالية، وتوجيهه إلى مكانٍ آخر. ينعكس هذا الفارق بين الحالات غير الاختيارية والاختيارية للذهن على مُستوى الدماغ؛ لأنها محكومة بأنظمةٍ

مُختلفة. وينبغي أن يُنتج الاختلاف بينهم، إلى حدٍّ ما، شعورًا بوجود ذاتٍ واعيةٍ تنعم بحُريَّةِ الإِرادة.

مع ذلك، وكما بدأنا نرى، يظهر الشُّعور بالحُرِّيَّة نتيجةً لجهلنا، من لحظةٍ إلى أخرى، بالأسباب السابقة لأفكارنا وأفعالنا. تصف عبارة "الإرادة الحُرَّة" طيفًا يبدو كأنه الشعور للتحديد مع حالات ذهنية حالما تنشأ في الوعي. تُخبرنا أفكارٌ مثل "ماذا يجب علي أن أُقدِّم لابنتي في عيد ميلادها؟ عرفت؛ سأصحبها إلى محلٍ للحيواناتِ الأليفة، وأدعها تختار سمكةً استوائية" بالحقيقة الواضحة للاختيارات، التي اتُّخذت بحُرِّيَّة. لكن، من وجهة نظرٍ أعمق (الحديث موضوعيًا وشخصيًا)، تنشأ الأفكار ببساطة دون تأليف، إلا أنها تُؤلف أفعالنا.

لا يعني هذا أن الإدراك الواعي والتفكير المدروس لا يخدم أي غرض. في الحقيقة، يعتمد مُعظم سلوكنا عليهم. قد أتحرك قليلًا، لا واعيًا، في مقعدي، لكن لا يُمكن أن أقرر لا واعيًا أن الألم في ظهري يُبرر الذهاب إلى مُعالج طبيعي. ولكي أذهب إليه، يجب أن أصبح مُدركًا للألم وأكون مُتحفزًا بوعي لاتخاذ إجراءٍ حيال ذلك. قد يكون بالإمكان صنع رجلٍ آلي [روبوت] عديم الإحساس قادرٍ على هذه الحالات، لكن في حالتنا، يبدو بأن سلوكيات مُعينة تتطلب حضور تفكيرٍ واعٍ. ونعلم بأن أنظمة الدماغ، التي تسمح لنا بالتفكير في خبراتنا، تختلف عن تلك المستخدمة عندما نستجيب تلقائيًا للمُحفزات. لذا، لا يكون الوعي، ضمن هذا السياق، شيئًا لا صلة له بالأمر [14]. كذلك، كامل عملية أن أصبح مُدركًا للألم في ظهري، والتفكير به، والبحث عن علاج له، ينتج عن عمليات لا أعيها تمامًا. هل أوجدت أنا، المرء الواعي، ألمي؟ لا، لقد ظهر ببساطة. هل اختلقتُ أفكارًا عنه أدت بي للتفكير في العلاج الطبيعي؟ لا أيضًا، لقد ظهرت الأفكار ببساطة. لا تُقدم عملية التفكير المدروس الواعي هذه– رغم اختلافها عن المنعَكس اللاواعي– أُسُسًا لحُرِّية الإرادة.

أشار دينّيت، وآخرون، إلى كون الناس يخلطون عُمومًا بين الحَتْمِيَّة والجَبْرِيَّة. ويُؤدي هذا لظهور أسئلةٍ من عيار "إذا كان كل شيءٍ قد تقرر، فلماذا علي أن أفعل أي شيء؟ لماذا لا أجلس

وأرى ما سيحدث؟" إنه إرباكٌ محض؛ أن تجلس وترى ما الذي سيحصل هو اختيارٌ بحد ذاته، سينتج عنه عواقب خاصة به. كما أنه من الصعب للغاية القيام به: فقط حاول البقاء في السرير طوال اليوم، مُنتظرًا حصول شيءٍ ما؛ ستجد نفسك مُهاجمًا بدافع النُهوض وفعل شيءٍ ما، والذي سيتطلب جُهودًا جبارةً مُتزايدةً لمقاومته.

ولا تعني حقيقة اعتماد خياراتنا على مُسبباتٍ مُسبقة بأنها غير مُهمة، إذا لم أُقرر كتابة هذا الكتاب، فإنه لن يكتب نفسه. اختياري كتابته كان– من غير ريبٍ– السبب الرئيسي في ظهوره. تُعتبر القرارات والنوايا والمجهودات والأهداف وقوة الإرادة وما إلى ذلك، حالات عرضية للدماغ، تُؤدي إلى سلوكيات مُحددة، وتُؤدي السلوكيات إلى نتائج في العالم. لذلك، تُعتبر الاختيارات الإنسانية مُهمةً، بحسب رأي المسَبِّحين بِحَمْدِ الإرادة الحُرَّة. لكن الاختيار التالي الذي ستتخذه سيخرج من ظُلُمات مُسبباتٍ مُسبقة لم توجدها أنت، الشاهد الواعي على خبرتك.

ولذلك، وبينما تُعدّ مقولة أن "الشخص كان ليقوم بشيءٍ مُخالف إذا اختاره مخالفًا" صحيحةً، إلا أنه لا يُقدم ذلك النوع من حُريَّة الإرادة، التي يتوق لها مُعظم الناس؛ لأن "خيارات" شخصٍ ما تظهر في عقله ببساطة، كما لو كانت مُنبثقةً من الفراغ. ومن وجهة نظر إدراكك الواعي، فإنك لم تَعُد مسؤولًا عن الشيء القادم الذي تفكر به (وتفعله لاحقًا) أكثر من مسؤوليتك عن حقيقة أنك وُلدت في هذا العالم.

دعنا نفترض بأن حياتك قد خرجت عن مسارها، لقد اعتدت أن تكون مُتحفزًّا جدًا، وتُثيرك فُرصك، ولائقًا من الناحية البدنية، إلا أنك الآن كسولٌ، تثبُط همتك بسهولة، ووزنك زائد. كيف وصلت إلى هذا الطريق؟ يُمكنك إخبارنا قصةً حول كيف تَفَسَّخَت حياتك، لكن لا يُمكنك أن تُفسِّر حقًّا لم تركتَ ذلك يحصل. والآن تُريد الهروب من هذا الاتجاه المنحدر، وتُغيِّر نفسك من خلال الإرادة.

بدأتَ قراءة كُتب المساعدة الذاتية، وبدأتَ تُغيِّر نظامَك الغذائي، وتنضم إلى قاعة رياضية، كما قررت العودة إلى المدرسة، ولكنك، بعد ستة أشهر من الجُهد، لم تقترب قيد أُنمُلة من الحياة التي

كُنتَ عليها من قبل. وأخفق الكتاب في التأثير عليك، فيما ثَبُت استحالة الاستمرار على نظاميك، الغذائي والرياضي، وتسرب الملل إليك من المدرسة فتوقفت. لماذا صادفت عددًا كبيرًا من العقبات في نفسك؟ لا فكرة لديك. لقد حاولت أن تُغيِّر عاداتك، لكن يبدو بأنها أقوى منك. يعلم مُعظمنا كيف يكون الفشل بهذه الطريقة. ولا توحي هذه الخبرات، ولو قليلًا، بِحُرِّيَةِ الإِرَادة.

لكنك استيقظت هذا الصباح، شاعرًا بتصميمٍ أكبر. قائلًا كفى! والآن، لديك إرادةٌ حديدية. ولمع في ذهنك، قبل مُغادرتك السرير، فكرة رائعة لموقعٍ شبكي، واكتشفت أن اسم النطاق كان مُتوافرًا لقاء عشر دولارات فقط، فامتلأت بالثقة. أنت الآن مُبادر! وتُشارك الفكرة مع العديد من الأشخاص الأذكياء، الذين يعتقدون بأنها ستجعلك ثريًّا لا محالة.

تهب رياحك، فتغتنمها، وأشرعتك مرفوعة، وتغير وجهة سفينتك بنشاط. كما يظهر بأن أحد أصدقائك هو صديقٌ مُقربٌ أيضًا لتيم فيريس Tim Ferriss، مُدرب أساليب العيش ومُعلِّم اللياقة الشهير. يعرض فيريس التشاور معك حول منهاج نظامك الغذائي والتدريبات. وتجد بأن هذا الاجتماع قد كان مُفيدًا جدًّا، وتكتشف– على إثر ذلك– في داخلك مخزونًا من الانضباط، لم تكن تعرف وجوده. وفي خلال الشهور الأربعة التالية، تستبدل 20 رطلًا [10 كيلوغرامات تقريبًا] من الدهون بمثلها من العضلات. ما يزال وزنك كما هو، لكنك تحولت تمامًا. ولا يُصدق أصدقاؤك ما أنجزته. حتى أعداؤك بدؤوا يطلبون النُصحَ منك.

تشعر تجاه حياتك بشعورٍ مُختلف تمامًا، ولا يمكن إنكار الدور الذي أداه الانضباط والاختيار والجُهد في نُهوضك. لكن كيف يُمكنك تفسير قُدرتك على بذل هذا المجهود اليوم وليس قبل سنة مضت؟ من أين أتت فكرة الموقع الشبكي؟ لقد ظهرت في عقلك وحسب. هل قُمت– كعنصر واعٍ كما تشعر– بابتكارها؟ (إذا كان الأمر كذلك، لماذا لا تقوم بابتكار الفكرة التالية الآن؟) كيف يُمكنك شرح التأثير الذي أحدثته نصيحة تيم فيريس عليك؟ كيف يُمكنك شرح قُدرتك على الاستجابة لها؟

إذا ما أوليتَ انتباهك لحياتك الداخلية؛ سترى بأن ظهور الاختيارات والجهود والنوايا عملية غامضة أساسًا. نعم، يُمكنك اتخاذ قرار الخضوع لحميةٍ غذائية، وتعرف الكثير عن المتغيّرات التي يمكنك الالتزام بها، ولكن لا يُمكنك أن تعرف لماذا تمكنت أخيرًا من الالتزام بهذا النظام بينما أخفقتَ في جميع مُحاولاتك السابقة. ربما لديك قصةً لتُخبرنا بها حول اختلاف الأمور هذه المرة، لكنها لن تكون سوى وصفٍ ما بعديّ [لاحق] لأحداثٍ لم يكن لك يدٌ في السيطرةِ عليها. نعم، يُمكنك فعل ما تُريد؛ لكن لا يُمكنك تفسير حقيقةَ أن حاجاتك تُؤثر في حالةٍ دون أخرى (وبالتأكيد، لا يُمكنك اختيار حاجاتك مُقدمًا). لقد رغبت في تخسيس الوزن لسنوات. ومن ثم رغبتَ ذلك فعلًا. ما الفرق؟ مهما يكن، فإنه لن يكون الفرق الذي أوجدته.

أنت لست مُسيطرًا على ذهنك – لأنك، كعُنصرٍ واعٍ، تُشكل جُزءًا من ذهنك وحسب، وتعيش تحت رحمة أجزاءٍ أخرى [15]. يُمكنك فعل ما قررت فعله؛ لكن، لا يُمكنك تقرير ما ستُقرر فعله. وبالتأكيد، يُمكنك خلق إطار عملٍ بحيث تُصبح قراراتٌ مُعينة مُرجحةً أكثر من الأخرى؛ مثلًا: يُمكنك إزالة كل الحلويات من بيتك، ليُصبح من الاستحالة عليك أن تأكل الحلوى لاحقًا في المساء، لكن لا يُمكنك معرفة لماذا كُنت قادرًا على الخُضوع اليوم لإطار العمل هذا؛ بينما لم تخضع له البارحة.

إذًا، ليس القصد بأن قُوَّة الإرادة هذه ليست هامة، أو أنه كان مُقدّرًا تقويضها من علم الأحياء [البيولوجيا]. إن قوة الإرادة، بحدّ ذاتها، ظاهرةٌ أحيائِيَّةٌ [بيولوجية]. باستطاعتك، من خلال الجُهدِ والانضباط، أن تُغيِّر حياتك ونفسك، لكن لديك في هذه اللحظة أيُّما استطاعة لبذل جُهدٍ وانضباط، بما لا يزيد عن ذلك مثقال ذَرَّةٍ ولا أصغر. فإما أن تكون محظوظًا في هذا المجال، أو لا تكون؛ فلا يُمكنك أن تصنع حظك.

يعتقد كثيرٌ من الناس بأن حُريَّة الإنسان تكمن في قُدرته على فعل ما نؤمن بوجوب فعله، وذلك بعد التفكير مليًّا فيه؛ والذي يعني، غالبًا، كبح جماح رغباتنا الآنية من أجل مُلاحقة أهدافنا

بعيدة الأمد أو الوصول لرأيٍ أفضل. ومن المؤكد بأنها قُدرةٌ يتمتع بها الناس، بدرجةٍ أو بأخرى، بينما تفتقدها حيوانات أخرى، ولكن، مع ذلك، قُدرة أذهاننا لها جُذورٌ لا واعية.

أنت لم تبنِ ذهنك. وفي اللحظات التي يبدو لك بأنك تبنيه- حين تبذُل جُهدًا لتغيير نفسك أو تحصيل معرفة أو إجادة مهارة- فإن الأدوات الوحيدة، التي تحت تصرفك، هي تلكم التي ورثتها من اللحظات السابقة.

تُؤثر الاختيارات والمجهودات والنوايا والتفكير على سلوكنا، ولكنهم، بحدِّ ذاتهم، يُشكلون جُزءًا من سلسلة مُسببات تسبق الإدراك الواعي، والتي لا نُمارس سيطرةً مُطلقةً عليها. إن اختياراتي مُهمة، وهنالك سُبلٌ أخرى لاختياراتٍ أكثر حكمة، لكن، لا أستطيع اختيار الذي أختاره. وإذا بدا، بأي حالٍ من الأحوال، بأنني أستطيع- على سبيل المثال، بعد التفكير ذهابًا وجيئةً بين اختيارين- فإنني لم أختر ما اخترت اختياره. يوجد إحجامٌ هنا، ينتهي في الظلام دائمًا. يجب أن أتخذَّ خطوةً أولى، أو أخيرة، لأسبابٍ مُحتمٌّ عليها البقاء غامضةً. [16]

يعتقد كثيرٌ من الناس أن مُشكلة الإحجام زائفة. يُصرُّ بعض التوافقيين على أن حُرِّيَّة الإرادة مُترادفةٌ مع فكرة قدرة المرء على التفكير أو التصرف على نحوٍ مُختلف. مع ذلك، فإن القول بأنه كان بإمكانك القيام بذلك بطريقةٍ أخرى هو مُجرد التفكير "كان بإمكاني فعل شيءٍ مُختلف" بعدما فعلت ما فعلته حقيقةً. هذه حُجَّةٌ فارغة [17]. إنه يخلط، خطأً، ما بين أملٍ بالمستقبل وتفسيرٍ صادق للماضي. وسيبقى ما سأفعله تاليًا وسببه أمرًا غامضًا؛ شيئًا قررته الحالة السابقة للكون وقوانين الطبيعة (بما في ذلك إسهامات المصادفة). يُعادل إعلان "حُريتّي" القول "لا أعرف لماذا فعلتها، ولكنها تلك النوعية من الأشياء التي أميل لفعلها، ولا أبالي بذلك".

واحدة من أكثر الأفكار الوجودية إمتاعًا (وربما الوحيدة) هي أننا أحرارٌ في تأويل معنى حياتنا، وإعادة تأويلها. باستطاعتك اعتبار زواجك الأول، الذي انتهى بالطلاق، على أنه "فشل" أو اعتباره ظرفًا تسبَّب في أن تنضج بأساليب كانت مصيريةً بالنسبة لسعادتك المستقبلية. هل تتطلب حرية التأويل هذه إرادةً حُرَّة؟ لا، إنها تقترح، ببساطة، بأن لأساليب التفكير المختلفة

تبعاتٍ مُختلفة. تُسبب بعض الأفكار الكآبة وتُثبط العزيمة؛ بينما يُلهمنا بعضها الآخر، يُمكننا مُتابعة أي خطٍ نُريده من التفكير، ولكن يُعتبر اختيارنا نتيجةً لأحداثٍ سابقةٍ لم نخلقها.

فكّر للحظة بالسياق الذي سيظهر فيه قرارك التالي: أنت لم تَخْتَر والِدَيك، أو وقت ولادتك ومسقط رأسك، ولم تختَر نوعَك أو غالبية تجاربك في الحياة. ليس لديك أي نوعٍ من السيطرة على مورثاتك أو تطور دماغك. وينتقي دماغك الآن اختيارات على أساس تفضيلات ومُعتقدات تشكّلت فيه طوال فترة حياتك من خلال مورثاتك، وتطورك الجسماني مُنذ أن حَبِلتْ والدتك بك، والتفاعلات التي حصلت بينك وبين الآخرين، والأحداث، والأفكار. أين الحُريَّة في ذلك؟ نعم، أنت حُر الآن في فعل ما يحلو لك، حتى الآن. لكن، من أين أتت رغباتك؟

انتقد الفيلسوف إيدي نامِياس Eddy Nahmias، في مقالٍ له كتبه لصحيفة "النيويورك تايمزThe New York Times" حُجَجًا من النوع الذي قدمته هنا، فقال:

يفهم العديد من الفلاسفة، ومن ضمنهم أنا، الإرادةَ الحُرَّة على أنها مجموعة من القُدرات لتصوُّر مسارات الأحداث مُستقبلًا، والبحث في أسباب المرء لاختيارها، والتخطيط لمستقبل المرء على ضوء هذا البحث والسيطرة على التصرفات في مُقابل الرغبات المتناقضة. نتصرف بإرادتنا الحُرَّة إلى المدى الذي يُتيح لنا الفُرصة لممارسة هذه القُدرات، من دون ضغطٍ خارجي أو داخلي غير معقول. إننا مسؤولون عن أفعالنا إلى المدى الذي نتحلى فيه بهذه القُدرات تقريبًا، وبأن لدينا فُرصًا لممارستها [18].

لا شكَّ بأنه باستطاعة المخلوقات البشرية تخيُّل المستقبل والتخطيط له، والتفكير مليًّا في الرغبات المتناقضة، وما إلى ذلك، وبأن أي خسارة ستُنقص من قيمتنا. ويُمكن لمختلف أنواع الضغوط الداخلية والخارجية أن تكون حاضرةً أو غائبةً بينما يتخيل شخصٌ ويُخطط ويتصرف، وتُحدد هذه الضغوط إحساسنا إذا ما كان الشخص مسؤولًا أخلاقيًا. مع ذلك، لا علاقة لهذه الظواهر بالإرادة الحُرَّة.

مثلًا؛ كُنت في فترة مُراهقتي وبداية عشرينيات عُمري، طالبًا مُكرِّسًا في الفنون القتالية، تدربت باستمرار، ودرَّست صفوفًا في الكُليَّة. وبدأت مُؤخرًّا في التدرُّب مُجددًا، بعد توقفٍ استمر أزيَدَ من عقدين. يبدو بأن كُلًّا من انقطاع اهتمامي بالفنون القتالية وعودته تعبيرٌ صادقٌ عن الحُريَّة التي يعزوها نامِياس لي. لم أرزح تحت "ضغطٍ خارجي أو داخلي غير معقول"؛ لقد فعلت ما أردته تمامًا. أردت التوقف عن التدريب؛ فتوقفت. أردت استئنافه؛ وها أنا الآن أتدرب عدة مراتٍ أُسبوعيًا. كان كل هذا مُرتبطًا بتفكيرٍ واعٍ وتصرفاتٍ من الواضح بأنها مع سيطرة ذاتية.

مع ذلك، عند بحثي عن السبب النفسي لسلوكي، أجده غامضًا للغاية. لماذا توقفت عن التدريب قبل عقدَين؟ حسنًا، هنالك أمورٌ مُعينة أصبحت أكثر أهميةً بالنسبة لي. ولكن، لماذا أصبحت أكثر أهميةً بالنسبة لي؟ ولماذا آنذاك تحديدًا؟ ولهذه الدرجة؟ ولماذا ظهر اهتمامي فجأةً بالفُنون القتالية بعد عقودٍ من السُّبات؟ يُمكنني أن أفكِّر مليًا وبوعي بنتائج مُؤثراتٍ مُعينَّة؛ على سبيل المثال: قرأت مُؤخرًا كتاب روري ميلّر Rory Miller المِمتاز "تأملات حول العُنف Meditations on Violence". لكن، لماذا قرأت هذا الكتاب؟ لا فكرة لدي. ولماذا وجدته شديد التأثير؟ ولماذا كان كافيًا لإطلاق العنان من ناحيتي (لو كان بالفعل السبب المباشر لسلوكي)؟ ولماذا هو مُثيرٌ جدًّا؟ أُمارسُ الآن ضَربَيْن من الفُنون القتالية، كما أتدرب مع ميلّر، وخبراء آخرين في مجال الدفاع عن النفس. ما الذي يحدث هنا بحق الجحيم؟ يُمكنني بالتأكيد أن أروي قصةً حول سبب قيامي بما أفعله، والذي قد يُعادل بالنسبة لي إخباركم أن هذا التدريب فكرة جيدة، ولماذا أستمتع به ... وما إلى ذلك. لكن التفسير الحقيقي لسلوكي غامضٌ عنّي. ومن الواضح للغاية بأنني، كشاهدٍ واعٍ لتجربتي، لست السبب الغامض له.

سيُفكِّرُ بعضكم، بعد قراءة الفقرة السابقة، قائلًا "يبدو كتاب ميلّر هذا مُمتعًا!" وستشترونه. لن يُفكر بعضكم في مثل هذا الأمر. ومن بين الذين سيشترون الكتاب، سيجده البعض مُفيدًا للغاية، بينما قد يضعه آخرون من دون فهمه، وسيضعه آخرون على الرّف وينسون قراءته. أين الحُرَّية في أيّ من هذا؟ أنت، كعُنصرٍ واعٍ يقرأ هذه الكلمات، لست بموضعٍ يسمح لك بتحديد في أيٍّ من الفئات ستُصنَّف. وإذا قررت تبديل الفئة– "لم أكن لأشتري الكتاب، لكن سأشتريه

الآن، نكايةً بكَ وحسب!"- لا يُمكنك تفسير هذا القرار كذلك. ستفعل ما ستفعله أيًّا كان، ولا معنى للتأكيد بأنك كُنت قادرًا على فعل خلاف ذلك.

هل بإمكان الحقيقة أن تكون سيئةً لنا؟

يخشى العديد من الناس من كون حُرِّية الإرادة وهمًا ضروريًا، وأنه من دونها سنُخفق في عيش حيواتٍ مُبدعة وتامّة. لا مُبرر لهذا القلق إطلاقًا، فقد وجدت دراسة بأن قراءة أفراد عينَّة الدراسة مواضيع تُعارض وُجود الإرادة الحُرَّة، قد جعلتهم أكثر ميلًا للغش في امتحانات لاحقًا [19]. بينما وجدت دراسة أخرى بأن أفراد العينَّة أصبحوا أقل إفادةً وأكثر عدوانيةً [20]. من الجائز جدًّا أنه ونتيجة لمعرفة (أو لتوكيد) حقائق مُعينة في ذهن الإنسان، يُمكن أن تنشأ عواقب مؤسفة من ناحيةٍ نفسية أو ثقافية، أو كليهما. مع ذلك، لستُ قلقًا خُصوصًا من الحط من شأن أخلاقيات قُرائي عبر نشري لهذا الكتاب.

سأتحدث مُنطلقًا من تجربةٍ شخصية، أعتقد بأن فقدان الشُّعور بالإرادة الحُرَّة قد حسّن مبادئي الأخلاقية فقط، من خلال زيادة مشاعر الشفقة والتسامح، وتقليل شعوري باستحقاقي لنتائج حظي الجيّد. هل هذه الحالة الذهنية مُحبذَّة دائمًا؟ غالبًا لا. إذا كنت أدرِّسُ مادةً للدفاع عن النفس للنساء، سأعتبر التشديد على أن كل السلوك البشري- بما في ذلك ردّ المرأة تجاه هُجومٍ جسدي- سيُؤدي إلى نتائج عكسية تمامًا تأكيدي أن كل السلوك الإنساني، على أنه أمرٌ يُحدده حالةٌ سابقةٌ للكون، وأن كل المغتصبين هم، في نهاية المطاف، سيّئو الحظ؛ لأنهم أنفسهم ضحايا أسبابٍ سابقةٍ لم يكن لهم يدٌ في خلقها. هنالك حقائق علمية وأخلاقية وعملية مُناسبةٌ لكل حادثة، والإيعاز بأمرٍ مثل "اقتلعي عين الوغد وحسب" له مكانه، بالتأكيد. لا يوجد تناقض هنا، لا ينفع مصالحنا في الحياة دائمًا النظر للناس والأشياء على أنهم مجموعة من الذرّات، ولكن هذا لا يُبطل حقيقة أو فائدة الفيزياء.

لا يجعلني عدم إيماني بالإرادة الحُرَّة قَدَرِيًّا [جَبْرِيًّا]، بل في الحقيقة، ساهم في زيادة مشاعري بالحُرِّيَّة. تبدو آمالي ومخاوفي واضطراباتي العصبية شخصيةً أقل وراسخة. لا يُمكنني إخباركم كم سأتغيَّر مُستقبلًا. كما إن المرء لا يصل إلى نتيجةٍ ثابتة حول نفسه مُعتمدًا على تجربةٍ وجيزة في سوء الهضم. ولا يحتاج المرء لفعل ذلك مُعتمدًا على ما فكَّر به أو كيف تصرَّف، خلال مُدةٍ زمنيةٍ طويلة في الماضي. يُمكن لتغيُّر ابتكاري في المعطيات المقدمة للنظام- مثل تعلم مهاراتٍ جديدة، أو بناء علاقاتٍ جديدة، أو اعتماد عادات مُجاملة جديدة- أن تُحوِّل حياة المرء تحولًا جذريًا.

من المفارقة أنه يُمكن التحول المرء ليصبح حسّاسًا للمسبِّبات الباطنية لأفكاره ومشاعره؛ فيُتيح له سيطرةً إبداعية أكبر على حياته. شيءٌ من قبيل الجدال مع زوجتك لأنك في مزاجٍ سيئ، أو أن تُدرك أن مزاجك وسلوكك نتجا عن انخفاض نسبة السُكر في الدم. وبالطبع، يكشف لك هذا الفهم أنك دُمية كيميائية حيوية، ولكنه يسمح لك أيضًا بالإمساك بإحكام بواحدٍ من خُيوطك: قد تكون لُقمةٌ من الأكل كل ما تحتاجه شخصيتك. يُمكن أن يسمح لنا الذهاب لما وراء أفكارنا ومشاعرنا الواعية في التوجه نحو مسارٍ أذكى في حياتنا (بالطبع، مع معرفة أنه يتم توجيهنا في نهاية المطاف).

المسؤولية الأخلاقية

منحنا الإيمان بالإرادة الحُرَّة كلا المفهومين الدينيين "الخطيئة" والتزامنا "بالعدالة الجزائيَّة"، ووصفت المحكمة العُليا للولايات المتحدة الأمريكية الإرادة الحُرَّة بأنها أساسٌ "شاملٌ وصلب" لنظامنا القانوني، وهو ما يختلف عن "تتنافى وجهة النظر الحاسمة حول سلوك الإنسان مع المبادئ الأساسية لنظامنا الجنائي" (قضية: الولايات المتحدة ضد غرايسون، عام 1978م). ويبدو أي تطور فكريّ يُهدد الإرادة الحُرَّة، على أنه يُثير الشُّكوك حيال أخلاقيات عقاب الناس على سلوكياتهم السيئة.

وبالتأكيد، سيكون القلق الأكبر في أن مُناقشةً صريحة للأسباب الأساسية للسلوك الإنساني ستبدو بأنها لن تترك مجالًا للمسؤولية الأخلاقية. إذا نظرنا للناس على أنهم أنماطٌ عصبية جويَّة؛ فكيف يُمكننا الحديث منطقيًا عن الصواب والخطأ أو الجيد والسيئ؟ تبدو هذه الأفكار كأنها تعتمد على كون الناس قادرين على اختيار كيفية تفكيرهم وتصرفهم بحرِّيَّة. وإذا بقينا مُلتزمين بالنظر إلى الناس على أنهم كذلك؛ فإنه ينبغي علينا إيجاد فكرةٍ ما عن المسؤولية الشخصية تُناسب الحقائق.

ولحُسن الحظ، يُمكننا ذلك، ما الذي يعنيه تحمل المسؤولية عن فعل؟ ذهبت البارحة إلى السوق؛ كُنت مُرتديًا ملابسي بالكامل، ولم أسرق أي شيءٍ، ولم أشتر سمك أنشوفة. والقول بأني كُنت مسؤولًا عن سلوكي، هو كالقول ببساطة بأني مُنسجمٌ بما يكفي مع أفكاري، ونواياي ومُعتقداتي ورغباتي، لأنني أُعتَبر استمرارًا لهم. ولو وجدتُ نفسي واقفًا عاريًا في السوق، عازمًا على سرقة أقصى ما يُمكنني من عُلب الأنشوفة، فإن سلوكي سيكون مُناقضًا جدًا لشخصيتي، وسأشعر بأنني لم أكن مُدركًا تمامًا، أو بأني لم أكن مسؤولًا عن أفعالي. تعتمد أحكام المسؤولية على المزاج العام لذهن المرء، وليس على ما ورائيات [ميتافيزيقيا] العلة والمعلولية الذهنية.

فكِّر بالأمثلة التالية لسلوكٍ إنساني عنيف:

1- طفلٌ عُمره أربع سنوات، كان يلعب بمُسدس والده، وقتل امرأةً شابة، كان المسدس مُذخرًا وغير مُؤمَّن في درج خزانة.

2- صبيٌ عُمره اثنتا عشرة سنة، كان ضحية اعتداءٍ جسدي وعاطفي دائمَين، أخذ مُسدس والده، وأطلق النار عمدًا وقتل امرأةً شابة، لأنها كانت تُضايقه.

3- رجلٌ عُمره خمسٌ وعشرون سنة، كان ضحية اعتداءٍ جسدي وعاطفي دائمَين، أطلق النار عمدًا وقتل خليلتَه، لأنها هجرَتهُ من أجل رجلٍ آخر.

4- رجلٌ عُمره خمسٌ وعشرون سنة، ترعرع مع والدَين مُذهلَين، ولم يتعرض مُطلقًا للاعتداء العاطفي، أطلق النار عمدًا على فتاة شابةٍ لم يُقابلها قط "على سبيل الاستمتاع فقط".

5- رجلٌ عُمره خمسٌ وعشرون سنة، ترعرع مع والدَين مُذهلَين، ولم يتعرض مُطلقًا للاعتداء العاطفي، أطلق النار عمدًا على فتاةٍ شابة، لم يُقابلها قط "على سبيل الاستمتاع فقط". كشف تصوير دماغ الرجل بجهاز الرنين المغناطيسي عن وجود ورمٍ بحجم كرة غولف، في القشرة الدماغية أمام الجبهيَّة المتوسطة (وهي المنطقة المسؤولة عن التحكم بالدوافع العاطفية والسلوكية).

ماتت امرأةٌ في كل حالةٍ من الحالات المذكورة أعلاه، وفي كل حالة كان موتها نتيجةً لأحداثٍ تنشأ في دماغ إنسانٍ آخر. لكن تعتمد درجة الغضب الأخلاقي التي نشعر بها على الظروف الباطنية الموصوفة مع كل حالة. نظنُّ بأنه لا يُمكن لطفلٍ في الرابعة من عُمره أن يقتل حقًّا إنسانًا عمدًا، كما لا يُمكن لنوايا إنسان في الثانية عشرة من عُمره أن تكون مُتجذِّرةً كما لدى شخصٍ بالغ. ونعلم في الحالتين الأولى والثانية بأن دماغ القاتل لم يُصبح بالغًا تمامًا، وبأنه لم يستحق بعد جميع مسؤوليات تكوين الشخصية [التشَّخُص]. أما في الحالة الثالثة، فيبدو بأن وجود تاريخ سابق في الاعتداءات والظروف التي تراكمت، تُخفف من وطأة ذنب الرجل: كانت جريمةً عاطفية ارتكبها شخصٌ عانى من الآخرين. أما في الحالة الرابعة، فَلَمْ يكن هنالك اعتداء، ويُصنَّف دافع مُقترف الجريمة على أنه مُضطربٌ عقليًا. كما تتضمن الحالة الخامسة السُلوك نفسه والدافع المضطرب عقليًا، ولكن، يُغيِّر وجود ورمٍ في الدماغ- بطريقةٍ أو بأخرى- من الرُؤية الأخلاقية للأمر برمته: بالنظر إلى مكانه، يبدو بأنه ينزع عن القاتل كامل المسؤولية عن جريمته. وستَعمَل كالسحر، حتى لو كانت خبرة الرجل الذاتية مُماثلةً لتلك التي لدى المضطرب عقليًا في الحالة الرابعة؛ في اللحظة التي نفهم فيها أن مشاعره نابعةٌ من سببٍ جسدي، أي ورمٌ في الدماغ، فإن ذلك لا يمنعنا من النظر إليه كضحيةٍ لجسده الأحيائي [البيولوجي].

كيف يسعنا استيعاب هذا التدرج في المسؤولية الأخلاقية عندما تكون الأدمغة وتأثيراتها الباطنية في كل حالة، وبالدرجة نفسها تمامًا، هي السبب الحقيقي لموت امرأة؟

لا ينبغي أن يكون لدينا أية أوهام بأن العُنصر السببي، الذي يعيش داخل دماغ الإنسان، سيتعرف على أشخاصٍ مُحددين على أنهم خطيرون، ما نشجبه بأقصى درجةٍ في الشخص الآخر هو النيَّة الواعية في الإيذاء. لا يزال بالإمكان الحُكم على درجات الذنب من خلال الرجوع إلى حقائق الحالة: شخصية المتهم، واعتداءاته السابقة، والأنماط التي يستخدمها لمصادقة الآخرين، واستهلاكه للمُسكرات، والدوافع التي أقرّ بها بخُصوص الضحية، وما إلى ذلك. إذا بدت أفعال شخصٍ على أنها ليست من طباعه إطلاقًا، فإن ذلك قد يُؤثر على رأينا في الخطر الذي يُشكله على الآخرين. إذا بدا المتهم غير نادمٍ، ويتوق للقتل مُجددًا؛ فلا حاجة لأن نُفكر مليًا في أنه لا يوجد فكرة من أفكار الإرادة الحُرَّة ستعتبره خطرًا على المجتمع.

لماذا يُعدُّ القرار الواعي في إيذاء شخصٍ آخر أمرًا يستحق اللوم تحديدًا؟ لأن ما نفعله عطفًا على تخطيطنا الواعي يميل لأن يعكس بالكامل الخواص العامة لأذهاننا: مُعتقداتنا ورغباتنا وأهدافنا وآرائنا المسبقة وما إلى ذلك. فإذا ما زلت تُقرر قتل الملك، بعد أسابيع من التفكير مليًّا والبحث في المكتبة والنقاش مع أصدقائك؛ فسنقول لك: حسنًا، إن قتل الملك يكشف عن شخصيتك الحقيقية. الفكرة هنا ليست أنك السبب النهائي والمستقل لأفعالك؛ بل هي أن لديك، لسببٍ ما، ذهنية قاتل ملكٍ.

يجب سجن بعض المجرمين، لمنعهم من إيذاء الآخرين. التبرير الأخلاقي لهذا صريحٌ للغاية: هكذا سيكون جميع الآخرين أفضل حالًا. سيسمح لنا التخلي عن وهم الإرادة الحُرَّة بالتركيز على الأمور المهمة، وحماية الناس الأبرياء، وردع الجريمة ... إلى آخره. مع ذلك، يبدأ بعض الحدس الأخلاقي في التراخي في اللحظة التي ننظر بها نظرةً شاملةً لأخذ الحوادث في الاعتبار. وحالما نُدرك أنه حتى أكثر المفترسات ضراوةً، هي في حقيقة الأمر سيئة الحظ في كونها كذلك، ويبدأ منطق كرهها (كمُضادٍ للخوف) بالتفكك. ومُجددًا، حتى لو كُنت تعتقد بأن كل إنسان يضم روحًا خالدةً؛ فإن الصورة لن تتغير: أي شخصٍ وُلد بروح مُضطربٍ عقلي سيئ الحظ تمامًا.

بالعودة للحالة الخامسة، لماذا غيَّر ورم الدماغ وجهة نظرنا في الموقف جذريًّا؟ أحد الأسباب هو أن تأثيره قد حصل لشخصٍ (علينا الافتراض) ما كان ليتصرف على هذا النحو. يبدو كُلٌّ من الورم وتأثيره عرضيًا، وسيجعل هذا مُقترف الجريمة يبدو مُجرد ضحيةٍ لعلم الأحياء [البيولوجيا]. وبالتأكيد، إذا لم نتمكن من علاج حالته؛ فسنضطر لاحتجازه لكي نمنعه من ارتكاب المزيد من الجرائم، ولكننا لن نكرهه أو نُدينه على أنه سيئ. هنا جبهةٌ واحدة أعتقد بأن حدسنا الأخلاقي يجب أن يتغير حولها: يُصبح رسم خطٍ فاصل بين الحالتَيْن، مثل الرابعة والخامسة أصعب، كلما زاد فهمنا للذهن البشري من الناحية السببية.

لدى الرجال والنساء المحكومين بالإعدام بعض التركيبات من المورثات السيئة، والآباء السيئين، والبيئة السيئة، والأفكار السيئة (وبالتأكيد، لدى البريء قدرٌ كبير من سوء الطالع). أيٌّ من هذه الكميات كان مسؤولًا عنها تحديدًا؟ لا يوجد كائنٌ بشري مسؤول عن مورثاته أو تنشئته، على الرغم من أن لدينا ما يكفي من أسباب للاعتقاد بأن هذه العوامل تُحدد شخصيته. ينبغي أن يُظهر نظام العدالة الخاص بنا فهمًا بأن الحياة قد تُعامل أي شخصٍ منا بطريقةٍ مُختلفةٍ تمامًا. في الحقيقة، يبدو بأن من المشين عدم إدراك كم يتدخل الحظ في الفضيلة بحدِّ ذاتها.

ولكي نعرف كيف يجب أن يتحول حدسنا الأخلاقي كاملًا، فكر في الذي قد يحصل إذا اكتشفنا علاجًا للشر الإنساني. تخيَّل لو أصبح بالإمكان إجراء كل تغيير ذي صلةٍ في الدماغ البشري بتكلفةٍ أرخص وخاليةٍ من الألم وبأمان. في الحقيقة، يُمكن وضع العلاج مُباشرةً في إمدادات الغذاء، مثل فيتامين "د"، لن يكون الشر أكثر من مُجرَّد سوء تغذية.

إذا تخيلنا وجود علاجٍ شافٍ للشر، فيُمكننا أن نرى بأن نزعتنا الجزائيَّة تُعاني خللًا أخلاقيًا. تأمل، لبُرهة، في فكرة منع تقديم علاج للمُجرمين، كجُزءٍ من العقاب. هل يبدو هذا الأمر منطقيًا إجمالًا؟ ما الذي قد يعنيه القول بأن شخصًا يستحق أن يُمنع عنه تلقي هذا العلاج؟ ماذا لو كان هذا العلاج مُتاحًا قبل جريمته؟ هل سيبقى مسؤولًا عن أفعاله؟ يبدو من المرجح للغاية مُقاضاة أولئك، الذين اطلعوا على حالته، بتُهمة بالإهمال. هل سيكون من المنطقي رفض إجراء

عملية جراحية للرجل في الحالة الخامسة كعقابٍ، إذا عرفنا بأن الورم الدماغي كان السبب الحقيقي للعُنف لديه؟ بالتأكيد لا. تبدو مُقتضيات ذلك محتومةً: يعتمد الإلحاح على الجزاء على عدم رُؤيتنا للمُسببات الأساسية للسلوك الإنساني.

بصرف النظر عن ارتباطنا بفكرة الإرادة الحُرَّة، يعرف أغلبنا بأن بإمكان اضطرابات الدماغ التفوق على أفضل نوايا الذهن. يُمثل هذا التحول في الفهم خُطوةً مُتقدمةً نحو رُؤيةٍ أكثر تعمقًا واتساقًا وشفقةً لإنسانيتنا المشتركة، وينبغي علينا مُلاحظة أن هذا ابتعاد مُستمر عن الماورائيات الدينية. بالكاد يوجد هنالك مفاهيم قدمت نظرةً أعظم لقسوة الإنسان أكثر من فكرة روحٍ خالدة تقف مُترَّفِعَةً عن جميع المؤثرات المادية، التي تتراوح ما بين المورثات إلى الأنظمة الاقتصادية. وضمن الإطار الديني، سيدعم الاعتقاد بالإرادة الحُرَّة الفكرة السيئة؛ والتي تبدو مُبررًا، ليس كعقابٍ قاسٍ وحسب في هذه الحياة، بل عقابٌ أبدي في الحياة الأخرى. وعلاوةً على ذلك، ومما يُثير السُخرية، أن أحد المخاوف المرافقة لتقدّمنا في المجال العلمي، هي أن فهمًا أكثر اكتمالًا لأنفسنا سيُؤدي لتجريدنا من الإنسانية.

لا يعني النظر للكائنات البشرية على أنها ظواهر بشرية، أن نقوم بتدمير نظامنا للعدالة الجنائية. ماذا لو تمكنا من حبس الزلازل والأعاصير جزاءً على جرائمهما، سنبني سجونًا لهم أيضًا. ومُكافحة الأوبئة الناشئة– وحتى الحيوانات البريَّة المسببَّة– من دون أن ننسب لها الإرادة الحُرَّة. ويُمكننا، وبجلاء، الرد بذكاء على التهديدات التي نتعرض لها من الأشخاص الخطرين، من دون أن نكذب على أنفسنا بخُصوص الأصول الموغلة للسُلوك الإنساني. ما زلنا بحاجةٍ إلى نظام عدالةٍ جنائي يسعى لأن يُحدِّد الإدانة والبراءة بدقةٍ، إلى جانب المخاطر المستقبلية التي يُشكلها المذنب على المجتمع. ولكن منطق عقاب الناس لن يكون ناجزًا؛ ما لم نكتشف بأن العُقوبة مُكونٌ أساسيٌ للردع أو إعادة التأهيل.

فضلًا عن ذلك، علينا الإقرار بأن مسألة العُقوبة صعبة. كتب جاريد دايموند Jared Diamond في مقالٍ رائع [21]، نُشر في صحيفة "ذا نيويوركر The New

Yorker"، حول الثمن الباهظ الذي ندفعه أحيانًا عندما لا نشفي غليلنا بالانتقام، وقارن بين تجربتَي شَخْصَيْن: صديقه دانيال، وهو من سُكان مُرتفعات غينيا الجديدة، الذي انتقم لموت عمِّه؛ وحماه الراحل، الذي أُتيحت له الفُرصة لقتل الرجل الذي قتل كامل أفراد عائلته خلال المحرقة الجماعية [الهولوكوست]، ولكنه اختار بدلًا من ذلك تسليمه للشُرطة، (وأُطلق سراح القاتل، بعد أن أمضى سنةً واحدةً في السجن). لا يُمكن أن تكون عواقب إشفاء الغليل بالانتقام، في الحالة الأولى، والامتناع عنه في الحالة الثانية، أكثر جلاءً من ذلك. وبينما يوجد الكثير لقوله ضد ثقافة الثأر في مناطق غينيا الجديدة الجبلية، فإن حما دايموند أمضى آخر ستين عامًا من حياته "يُمزقه الندم والذنب"، ومن الواضح بأن الانتقام يُشفي غليل الحاجة النفسية القوية للعديد منا.

نحنُ نميل كثيرًا نحو فهم الناس على أنهم مُؤلفو أفعالهم، لتحميلهم مسؤولية الأخطاء التي يرتكبونها بحقِّنا، والشعور بوجوب مُعاقبة هذه الآثام، وغالبًا ما يكون العذاب، أو سلب الحياة، العقاب الوحيد الذي يبدو مُناسبًا لمرتكبي جريمة. ويبقى أمامنا رُؤية كيف يُمكن لنظام عدالة حسن الاطّلاع علميًا الاهتمام بهذه الدوافع. من الواضح أنه ينبغي أن يُؤدي تفسير كامل لأسباب السلوك البشري إلى إضعاف ردّنا الطبيعي على الظلم. على سبيل المثال، أشك بأن حما دايموند سيُعاني من العذاب نفسه لو أن عائلته سُحقت تحت أقدام فيل أو قضوا نحبهم جرّاء مرض الهواء الأصفر [الكوليرا]. وعلى نحوٍ مُشابه، يُمكننا الافتراض بأن ندمه سيكون أقل، بشكلٍ ملحوظ، إذا علم بأن قاتل عائلته قد عاش حياةً أخلاقيةً بريئةً، إلى أن أصيب بمرضٍ في قشرة دماغه أمام الجبهيَّة المتوسطة.

مع ذلك، قد يبقى شكلٌ صوريٌّ من العُقوبة أخلاقيًا– لا بل ضروريًا– إذا أدى لأن يتصرف الناس بطريقةٍ أفضل مما قد يفعلون. وعمّا إذا كان مُفيدًا تشديد العُقوبة على بعض المجرمين– بدلًا من احتوائهم أو إعادة تأهيلهم– فإن السُؤال موجهٌ للعِلمَين الاجتماعي والنفسي. ولكن يبدو جليًا بأن الرغبة في العُقوبة، الناشئة من فكرة أن كل شخصٍ هو المؤلف الحُرّ لأفكاره وأفعاله، تستند على وهمٍ إدراكي وعاطفي، كما تُديم وهمًا أخلاقيًا.

هنالك طريقة واحدة للنظر في الصلة ما بين الإرادة الحُرَّة والمسؤولية الأخلاقية، وهي مُلاحظة أننا ننسب هذه الصفات عُمومًا للناس عندما يتعلق الأمر بالأفعال التي قد يردعها العقاب فقط [22]. لا يُمكنني تحميلك مسؤولية سلوكك الذي لا يُمكنك السيطرة عليه. إذا جعلنا العُطاس أمرًا غير قانوني، فسيخرق بعض الناس القانون بصرف النظر عن شدة العواقب. سلوكٌ مثل الاختطاف، إلا أنه، يبدو بأنه يتطلب تفكيرًا مليًّا واعيًا وجُهدًا دؤوبًا في كل حركة. لهذا؛ يجب علينا القُبول بالردع. إذا كان بإمكان التهديد بالعُقوبة أن يجعلك تتوقف عن فعل ما تفعله، فإن سلوكك يدخل تمامًا ضمن الأفكار العامة للإرادة الحُرَّة والمسؤولية الأخلاقية.

قد يكون صحيحًا أن العقاب الصارم- بدلًا من مُجرد الاحتواء أو إعادة التأهيل- يكون ضروريًا من أجل منع جرائم مُعينة. ولكن عقاب الناس لأسبابٍ واقعية [براغماتية] صرفة سيكون مُختلفًا جدًّا عن النهج الذي نتبعه حاليًا. وبالطبع، إذا كان عقاب الجراثيم والفيروسات سيمنع ظهور أمراضٍ وبائية، فإننا قد نُوسع نطاق عدالتنا لتشملهم أيضًا.

هنالك طيفٌ واسعٌ من السلوكيات البشرية التي بالمستطاع تعديلها عبر العُقوبات والحوافز، ونسب المسؤولية للناس في هذه السياقات أمرٌ طبيعي للغاية. بل قد يكون من المستحيل تفاديها بحُكم العادة. كما يُشير العالم النفسي دانيال ويغنر Daniel Wegner إلى أن فكرة الإرادة الحُرَّة قد تكون أداةً لفهم السلوك البشري. والقول بأن امرءًا اختار بحُرِّيةٍ تبذير مُدخرات عُمره على طاولات البوكر يُشبه القول بأنه كان لديه الفُرصة لفعل خلاف ذلك، وبأن لا شيء مما فعله كان طائشًا. لم يلعب البوكر صُدفةً، أو لأنه وقع في براثن الوهم، بل لأنه أراد ذلك، ونواه، وقرره، مرارًا وتكرارًا. وفي معظم الغايات، كان منطقيًا تجاهل المسببات العميقة للرغبات والنوايا- المورثات، والجُهود المِشْبَكِيَّة، وخلاف ذلك- والتركيز بدلًا من ذلك على الخُطوط العامة التقليدية للشخصية. ونحن نقوم بذلك عندما نُفكر في اختياراتنا وسلوكنا؛ لأنها أسهل طريقة لتنظيم أفكارنا وأفعالنا. لماذا أطلب جعَةً بدلًا من النبيذ؟ لأنني أفضِّل الجعَة. ولماذا أُفضِّلها؟ لا أعرف، ولكن لا أحتاج للتساؤل عن ذلك عُمومًا. إن معرفتي بأني أحب الجعَة أكثر من النبيذ هو جُلُّ ما أريد معرفته للاحتفال في مطعم. ومهما يكن السبب؛ فإنني أفضِّلُ مذاق أحدهما على الآخر.

هل هنالك حُرِّية في ذلك؟ لا إطلاقًا. هل سأستعيد حُرِّيتي سحريًا إذا اتخذ قرارًا مُخالفًا لتفضيلاتي وطلبتُ نبيذًا بدلًا عن الجعة؟ لا، لأن جُذور هذه النية ستكون غامضةً بقدر غُموض التفضيلات نفسها.

السياسة

سواء أكان ذلك جيدًا أم لا، فإن لإزالة وهم الإرادة الحُرَّة مضامين سياسية؛ لأن التحرّريين [الليبراليين] والمحافظين ليسوا مُتساوين في درجة عُبوديتهم لها. يميل التحرّريون إلى فهم أن شخصًا قد يكون محظوظًا أو غير محظوظٍ في جميع المسائل المتعلقة بنجاحه. بينما لدى المحافظين هوسٌ ديني بالفردية. يبدو العديد بأنهم لا يتمتعون بأي نوعٍ من الوعي حول كم ينبغي أن يكون المرء محظوظًا حتى ينجح في أي شيءٍ في الحياة، وبصرف النظر عن الجدّ الذي يبذله المرء؛ إذ ينبغي أن يكون المرء محظوظًا حتى يكون قادرًا على العمل، وينبغي أن يكون المرء محظوظًا حتى يكون ذكيًّا، وبصحةٍ جيدةٍ جسديًا، وأن لا يُكون مُفلسًا في مُنتصف العُمر بسبب مرض زوجه.

سترى، عند النظر إلى السيرة الذاتية لأي رجلٍ "عصامي"، بأن نجاحه اعتمد بالكامل على ظروفٍ باطنية لم يخلقها، وبأنه كان مُجرد مُستفيدٍ منها. لا يوجد شخص على الأرض اختار مورثاته، أو بلاد مولده، أو حالته السياسية والاقتصادية التي سادت في اللحظات الهامة لتقدمه. ومع أن المرء يحصل، من خلال عيشه في أمريكا، على إحساسٍ مُميز بأن بعض المحافظين لو سُئلوا لِم لَم يولدوا باعوجاج في القدَمين [حَنَفُ القدم]، أو تيتَّموا قبل سن الخامسة، فإنهم لن يترددوا في أن ينسبوا الفضل في هذه الإنجازات لأنفسهم.

وحتى لو عانيت للاستفادة القُصوى مما منحتك إياه الطبيعة، فإنه لا يزال عليك الاعتراف بأن قُدرتك ونزعَتك للمُنافسة هي جُزءٌ من إرثك. ما هو مقدار الفضل الذي يستحقه شخصٌ لأنه غير كسول؟ لا شيء إطلاقًا. إن الكسل، كما المثابرة، حالةٌ عصبية. بالتأكيد، المحافظون على

حقّ في الاعتقاد بأنه يجب علينا تشجيع الناس للعمل لاستخلاص أفضل ما لديهم من قُدرات، وتثبيط الطُفَيلِيين أينما استطعنا. ومن الحكمة تحميل الناس مسؤولية أفعالهم، إذ تُؤثر هذه الأفعال على سلوكهم وتجلب النفع للمُجتمع. ولكن لا يعني هذا أنه ينبغي علينا أن نكون مأخوذين بوهم الإرادة الحُرَّة. علينا الاعتراف فقط بأن الجُهود هامة، وبأن بإمكان الناس أن يتغيروا. نحن لا نُغيِّر أنفسنا بدقة؛ لأنه لا نملك سوى ذواتنا التي نقوم معها بالتغييرات، ولكن لأننا نُؤثر ونتأثَّر باستمرار من العالم الذي يُحيط بنا، والعالم الذي بداخلنا. قد يبدو من غير المعقول تحميل الناس مسؤولية ما يحصل في ركنهم من الكون، ولكن حالما نوقف سحر الإرادة الحُرَّة، فإننا سنتمكن من فعل ذلك بدقة، إلى الدرجة التي تكون فيها مُفيدةً. يُمكننا أن نطلب من الناس أن يتغيَّروا عندما يُمكنهم ذلك. ويُمكننا رسم بعض المسارات الأخرى عندما يكون التغيير مُستحيلًا، أو عند عدم الاستجابة للمطالب. وخلال سعينا لتحسين أنفسنا ومُجتمعنا؛ فإننا نعمل مُباشرةً مع قوى الطبيعة، لا شيء سوى الطبيعة نفسها للعمل معها.

شُكر وتقدير

أود أن أشكر زوجتي ومُحررة الكتاب، آناكا هاريس Annaka Harris، لمُساهمتها في "الإرادة الحُرَّة". وكما هو الحال دائمًا، ساهمت نظرتها الثاقبة وتوصياتها في تحسين الكتاب كثيرًا. لا أعرف كيف تمكنت من تربية ابنتنا، والعمل على مشروعها الخاص، مع وجود مُتّسع من الوقت لكي تُحرِّر كُتُبي، ولكنها تمكنت من ذلك. أنا محظوظٌ للغاية ومُمتنٌ جدًا لوجودها معي.

كما قرأ جيري كوين Jerry Coyne وغالين ستراوسون Galen Strawson وأمي، المسودات الأولى لمخطوطة الكتاب، وقدموا مُلاحظاتٍ ذات فائدةٍ عظيمة.

عن الكاتب

كتب سام هاريس الكُتُب الأكثر مبيعًا: "نهاية الإيمان The End of Faith"، و"رسالة إلى أُمّة مسيحية Letter to a Christian Nation"، و"المشهد الأخلاقي The Moral Landscape"، و"الكذب Lying". ولقد فاز كتابه "نهاية الإيمان" بجائزة جمعية "بِن PEN" للعام 2005 عن فئة الكتابة الواقعية. كما نُشرت كتاباته بأكثر من 15 لُغة. وظهرت مُناقشات حول الدكتور هاريس وأعماله في صحيفة "ذا نيويورك تايمز The New York Times"، ومجلات "أمريكان ساينتفيك American Scientific"، و"نيتشر Nature"، و"رولينغ ستون Rolling Stone"، و"نيوزويك Newsweek"، و"تايم Time"، وفي منشورات أخرى، كذلك ظهرت كتاباته في صُحف: "ذا نيويورك تايمز The New York Times"، و"لوس أنجلس تايمز Los Angeles Times"، و"التايمز The Times" اللندنية، و"بوسطن غلوب Boston Globe"، و"ذا آتلانتيك The Atlantic"، و"نيوزويك Newsweek"، و"حولية علم الأعصاب Annals of Neurology"، وفي غيرها. كما أن الدكتور هاريس شريك مُؤسس ومُدير تنفيذي لـ "بروجيكت ريزون Project Reason"، وهي مُؤسسة غير ربحية مُكرّسة لنشر المعرفة العلمية والقِيم العلمانية في المُجتمع. وهو أيضًا حائز على شهادة في الفلسفة من جامعة ستانفورد، ودكتوراه في علم الأعصاب من جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلس UCLA. نرجو منكم زيارة موقعه الإلكتروني: www.samharris.org.

الملاحظات:

1- أتاحت لنا آخر التطورات في علم النفس التجريبي والتصوير العصبي دراسة الحدّ الفاصل بين العمليات الذهنية الواعية وغير الواعية، وبدقةٍ مُتزايدة. ونعرف الآن بأنه يوجد نِظامان على الأقل في الدماغ- يُشار لهما غالبًا بـ "العمليات المُزدوجة"- يحكمان الإدراك البشري وعواطفه وسلوكه. أحدهما يُعدّ من وجهة نظر تطوّرية أقدم ولاواعٍ وبطيء التعلم وسريع الاستجابة؛ بينما تطور الآخر في وقتٍ أحدث، وهو واعٍ وسريع التعلم وبطيء الاستجابة. ظاهرة التهيئة [التحضير والتزويد بالمعلومات] التي تُمثل بدون وعي تأثيرًا مُنبّهًا لأفكار المرء وعواطفه، وتُفصح عن أول هذين النظامَيْن، وتكشف حقيقة العمليات الذهنية المُعقدة التي تعمل في مُستوى سُفليّ للإدراك الواعي. يُمكن للناس أن يتخيّلوا أهدافهم وسلوكهم اللاحق بشكل موثوق به من خلال مروحةٍ واسعة من الطرق، وتُغيِّر هذه المُؤثرات غير الواعية (أتش. آرتس وآر. كوسترز وأتش. ماريين، 2008. التحضير والسلوك الدافع خارج الإدراك، مجلة "العُلوم/ ساينس" 319 [5780]: 1639؛ آر. كوسترز وأتش. آرتس، 2010. الإرادة اللاواعية: كيف يعمل السعي لتحقيق الأهداف خارج الإدراك الواعي، مجلة "العُلوم/ ساينس" 329 [5987]: الصفحات: 7 - 50).

المرجع بالإنجليزية:

(H. Aarts, R. Custers, & H. Marien, 2008. Preparing and motivating behavior out-side of awareness. Science 319[5780]: 1639; R. Custers & H. Aarts, 2010. The unconscious will: How the pursuit of goals operates outside of conscious awareness. Science 329 [5987]: 47–50).

لقد كان الأسلوب التجريبي "الإخفاء الرجوعي" لُبَّ مُعظم هذا العمل: إذا قدم أحدهم عناصر مع مُحفزات بصرية موجزة (بحُدود 30 ميلّي ثانية)، فإنه يُمكنهم مُلاحظته بوعي؛ ولكن لم يكن بإمكانهم الاستمرار في ذلك إذا تبع الحافز نفسه فورًا نمطٌ مُغاير (الإخفاء). تسمح هذه التقنية بتقديم كلمات وصورٍ إلى الذهن تحت عتبة الإدراك. ومما يُثير الاهتمام؛ أن عتبة التعرف الواعي للكلمات العاطفية أقل من الكلمات الحيادية، مما يُشير إلى حصول عملية دلالية قبل الوعي (آر. جيلّارد، و أيه. ديل كول، و أل. نقاش، و أف. فينكير، و أل. كوهين، و"أس. ديهاين، 2006. عملية الدلالة غير الواعية للكلمات العاطفية تُعدل الوصول الواعي. مجلة "وقائع الأكاديمية الوطنية للعلوم في الولايات المتحدة الأمريكية. الولايات المُتحدَّة الأمريكية 103 [19]: الصفحات: 7524- 7529).

المرجع بالإنجليزية:

(R. Gaillard, A. Del Cul, L. Naccache, F. Vinckier, L. Cohen, & S. Dehaene, 2006. Nonconscious semantic processing of emotional words modulates conscious access. Proc. Natl. Acad. Sci. USA 103[19]: 7524–7529).

وفّرت أحدث تجارب التصوير العصبي مزيدًا من الأدلَّة: تُشغِّل الكلمات المخفية مناطق مُرتبطة مع عملية الدلالة (أم. تي. دياز وجي. مكارثي، 2007. تُشغِّل مُعالجة الكلمات غير الواعية شبكة توزيع لمناطق الدماغ. مجلة "علم الأعصاب المعرفي" 19 [11]: الصفحات: 1768 – 1775، أس. ديهاين، وأل. نقاش، وأل. كوهين، ودي. لو بيهان، وجاي. أف. مانغين، وجاي. بي. بولين، وآخرون، 2001، الآليات الدماغية لتغطية الكلمات والتحضير بواسطة التكرار اللاوعي. مجلة "الطبيعة

[نيتشر] للعلوم العصبية". 4 [7]: الصفحات: 752 - 758. أس. ديهاين، وأل. نقاش، وأتش. جي. لو كليك، وإي. كويشلين، وأم. ميولّر، وجي. ديهاين- لامبرتز، وآخرون، 998، تصوير التهيئة الدلالية اللاواعية. مجلة "الطبيعة [نيتشر]" 395 [6702]: الصفحات: 597- 600)

المرجع بالإنجليزية:

(M. T. Diaz & G. McCarthy, 2007. Unconscious word processing engages a distributed network of brain regions. J. Cogn. Neurosci. 19 [11]: 1768–1775; S. Dehaene, L. Naccache, L. Cohen, D. Le Bihan, J. F. Mangin, J. B. Poline, et al., 2001. Cerebral mechanisms of word masking and unconscious repetition priming. Nat. Neurosci. 4[7]: 752–758; S. Dehaene, L. Naccache, H. G. Le Clec, E. Koechlin, M. Mueller, G. Dehaene-Lambertz, et al., 1998. Imaging unconscious semantic priming. Nature 395[6702]: 597–600)

تُغيِّر المُكافآت الموعودة تحت عتبة الإدراك من النشاط في منطقة المُكافئات في الدماغ، وتُؤثر على السلوك اللاحق (أم. بيسيغليوني، وأل. شميدت، وبي. دراغانسكي وآر. كالش، وأتش. هاو، وآر. جاي. دولان، وآخرون، 2007. كيف يُترجم الدماغ المال إلى قوة: دراسة تصوير عصبي للحوافر تحت عتبة الوعي، مجلة "العُلوم [اسينس]" 316 [5826]: الصفحات: 904- 906)؛

المرجع بالإنجليزية:

Subliminally promised rewards alter activity in the brain’s reward regions and influence subsequent behavior (M. Pessiglione, L. Schmidt, B. Draganski, R. Kalisch, H. Lau, R. J. Dolan, et al., 2007. How the brain translates money into force: A neuroimaging study of subliminal motivation. Science 316[5826]: 904–906).

وتُوجّه وجوه مُخيفة مخفية وكلمات عاطفية النشاط في اللوزة الدماغية، محور العمليات العاطفية في النظام الحُوفِيّ (بيه. جاي. والِن، وأس. أل. راوش، وأن أل. إيتكوف، وأس. سي. مكاِنيرني، وأم. بي. لي، وأم. أيه. جينيك، 998. التقديم المخفي لتعبيرات الوجه العاطفية تُشكل نشاط اللوزة الدماغية من دون معرفة واضحة. "مجلة العُلوم العصبية". 18 [1]: الصفحات 411- 418، أل. نقاش، وبي. جيلّارد، وسي. آدم، ودي. حزبون، وأس. كليمنصو، وأم. باولاك، وآخرون، 2005. سجل مباشر داخل قِحْفَة الدماغ حول العواطف المُستثارة بواسطة كلمات تحت واعية. مجلة "وقائع الأكاديمية الوطنية للعلوم في الولايات المتحدة الأمريكية. الولايات المُتحدَّة الأمريكية 102 [21]: الصفحات: 7713- 7717).

المرجع بالإنجليزية:

(P. J. Whalen, S. L. Rauch, N. L. Etcoff, S. C. McInerney, M. B. Lee, & M. A. Jenike, 1998. Masked presentations of emotional facial expressions modulate amygdala activity without explicit knowledge. J. Neurosci. 18[1]: 411–418; L. Naccache, R. Gaillard, C. Adam, D. Hasboun, S. Clemenceau,

M. Baulac, et al., 2005. A direct intracranial record of emotions evoked by subliminal words. Proc. Natl. Acad. Sci. USA 102[21]: 7713–7717).

يُشير التقديم تحت عتبة الإدراك للمُحفزات بعض المشاكل الفكرية، مع ذلك، وكما أشار دانيال دينِت، قد يكون من الصعب (أو من المُستحيل) التمييز بين ما تم اختباره، ومن ثم نُسِيَ، وبين ما لم يتم اختباره في المقام الأول - طالع الحوار المُفيد للغاية لـ "العمليات في الوعي ذات الطابع الأوريبلي في مُقابل تلك ذات الطابع الستاليني" (دي. سي. دينِت، 1991. "شرح الوعي". بوسطن: ليتل وبراون وشُركاهما، الصفحات: 116- 125).

المرجع بالإنجليزية:

(D. C. Dennett, 1991. Consciousness explained. Boston: Little, Brown and Co., pp. 116–125)

يعود هذا الغُموض، بدرجةٍ كبيرة منه، إلى حقيقة أن مُحتويات الوعي يجب أن تكون مُتكاملة بمُرور الوقت؛ ما بين 100 إلى 200 ميلّي ثانية (أف. كريك وسي. كوخ، 2003. إطار عمل للوعي. مجلة "الطبيعة [نيتشر] للعُلوم العصبية"، 6 [2]: الصفحات: 119- 126).

المرجع بالإنجليزية:

(F. Crick & C. Koch, 2003. A framework for consciousness. Nat. Neurosci. 6[2]: 119–126).

تسمح فترة التكامل هذه بدوث الإحساس بلمس الأشياء والإدراك البصري المُصاحب؛ إذ تصل إلى قشرة الدماغ في أوقاتٍ مُختلفة بتجربتها، ويُعتقد بكونها مُتزامنة. ولذلك، يعتمد الوعي على ما يُعرف عُمومًا بـ "ذاكرة العمل". لقد توصل العديد من عُلماء الأعصاب للفكرة نفسها (جاي. أم. فوستر، 2003، "قشرة الدماغ والذهن: توحيد الإدراك" أوكسفورد: مطبعة جامعة أوكسفورد؛ بيه. ثاغارد وبي. أوبي، 2008. الوعي العاطفي: نموذج عصبي حول كيف يتفاعل التقييم الإدراكي والإدراك الجسدي لإنتاج خبرة نوعية. مجلة "الإدراك الواعي". 17 (3). الصفحات: 811- 834؛ بي. جاي. بارس وأس. فرانكلين، 2003. كيف تتفاعل الخبرة الواعية وذاكرة العمل. "توجهات علوم الإدراك" 7 (4): الصفحات: 166- 172).

المرجع بالإنجليزية:

(J. M. Fuster, 2003. Cortex and mind: Unifying cognition. Oxford: Oxford University Press; P. Thagard & B. Aubie, 2008. Emotional consciousness: A neural model of how cognitive appraisal and somatic perception interact to produce qualitative experience. Conscious. Cogn. 17(3): 811–834; B. J. Baars & S. Franklin, 2003. How conscious experience and working memory interact. Trends Cogn. Sci. 7(4): 166–172).

واقترب جيرالد إيدلمان من تحديد هذا المبدأ عبر فكرة الوعي لديه كـ "حاضر يتم تذكّره". (جي. أم. إيدلمان، 1989، "الحاضر الذي يتم تذكّره: نظرية إحيائية للوعي". نيويورك: "بايسيك بوكس").

المرجع بالإنجليزية:

(G. M. Edelman, 1989. The remembered present: A biological theory of consciousness. New York: Basic Books).

2- بي. ليبِت وسي. أيه غليسون، وإي. دبليو. رايت ودي. كاي. بيرل، 1983. وقت النية الواعية للتصرف بالعلاقة مع بداية النشاط القِحْفِي (إمكانيات- الجهوزية): البداية اللاواعية للتصرف الحُرّ الإرادي، مجلة "الدماغ" 106 [القسم 3]، الصفحات: 623- 642؛ بي. ليبِت، 1985.

المرجع بالإنجليزية:

B. Libet, C. A. Gleason, E. W. Wright, & D. K. Pearl, 1983. Time of conscious intention to act in relation to onset of cerebral activity (readiness-potential): The unconscious initiation of a freely voluntary act, Brain 106 (Pt 3): 623–642; B. Libet, 1985.

البداية غير الواعية القِحْفية ودور الإرادة الواعية في الأفعال الإرادية. مجلة "العلوم السلوكية للدماغ". 8: الصفحات: 529 - 566.

المرجع بالإنجليزية:

Unconscious cerebral initiative and the role of conscious will in voluntary action. Behav. Brain Sci. 8: 529–566

كما وجد مُختبرٌ آخر إمكانية تغيير حُكم شخص عندما ينوي التحرك، من خلال إعطائه تغذية راجعة حِسّية مُتأخرة بحركاته الفعلية. وهذا يُشير إلى أن هذه الأحكام تقديراتٌ رجعية استنادًا على الوقت الظاهر للتحرك، وليس استنادًا على إدراكٍ فعلي بالنشاط العصبي الذي تسبب بالحركة (دبليو. بيه. بانكس وإي. أيه. إشام، 200).

المرجع بالإنجليزية:

(W. P. Banks & E. A. Isham, 2009).

نحن نستنتج اللحظة التي قررنا التصرف بها أكثر من إدراكها. ("العُلوم النفسية"، 20: الصفحات: 17- 21).

المرجع بالإنجليزية:

(Psychological Science, 20: 17–21)

مع ذلك، يُفكر ليبِت وآخرون أن مفهوم الإرادة الحُرَّة لم يُحفظ أصلًا: رُبما لدى الذهن الواعي "حق الاعتراض" بدلًا من البدء بأفعال مُعقدة. لطالما بدا هذا الاقتراح سخيفًا في ظاهره، وبالتأكيد الأحداث العصبية التي تمنع فعلًا مُخططًا له تنشأ من لاوعيٍ أيضًا.

3- جاي. دي. هاينِس، 2011. فكّ رموز النوايا وتوقها. "حولِيَّة أكاديمية نيويورك للعُلوم. 1224 (1): الصفحات: 9- 21.

المرجع بالإنجليزية:

J. D. Haynes, 2011. Decoding and predicting intentions. Ann. NY Acad. Sci. 1224(1): 9–21.

4- آي. فريد، وآر. مكامل، وجي. كريمان، 2011. إن التفعيل المُسبق المُتولد داخليًا، لخلية عصبية واحدة في القشرة الدماغية الأمام جبهية المُتوسطة للإنسان- يتوقع الاختيار. مجلة "الأعصاب"، 69: الصفحات: 548- 562: بيه. هاغارد، 2011. وقت القرار للإرادة الحُرَّة. مجلة "الأعصاب"، 69: الصفحات: 404- 406.

المرجع بالإنجليزية:

I. Fried, R. Mukamel, & G. Kreiman, 2011. Internally generated preactivation of single neurons in human medial frontal cortex predicts volition. Neuron, 69: 548–562; P. Haggard, 2011. Decision time for free will. Neuron, 69: 404–406.

5- أشار عالِما الأعصاب: جوشوا غرين وجوناثان كوهين لنُقطة مُشابهة:

نظرة مُعظم الناس للذهن ثُنائية ضمنيًا، والتحررّيون وغير المادّيين والتكامليون ... هذا هو الأمر بالنسبة لهم، يتطلب رفض الحتمية والتزامًا ضمنيًا ببعض أنواع المُسببات الذهنية السحرية ... على النقيض من التقليدية القانونية والفلسفية، لا تُشكل الحتميَّة تهديدًا حقيقيًا للإرادة الحُرَّة والمسؤولية، كما فهمناها بَدَهِيًّا. (جاي. غرين وجاي. كوهين، 2004. بالنسبة للقانون، علم الأعصاب لا يُغيّر شيئًا وكل شيء. مجلة "المُعاملات الفلسفية للجمعية الملكية في لندن، السلسلة (ب) عُلوم الإحياء". 359 [1451]: 1775- 1785).

المرجع بالإنجليزية:

(J. Greene & J. Cohen, 2004. For the law, neuroscience changes nothing and everything. Philos. Trans. R. Soc. Lond. B Biol. Sci. 359[1451]: 1775–1785)

6- للحُصول على دراسة جيدة لأفكار التكامليين، طالع الرابط الشبكي:

http://plato.stanford.edu/entries/compatibilism/

كما يُمكن الإطلاع على جي. واتسون، إصدار 2003. الإرادة الحُرَّة (الطبعة الثانية). أوكسفورد، مطبعة جامعة أوكسفورد.

المرجع بالإنجليزية:

G. Watson, ed., 2003. Free will (second edition). Oxford: Oxford University Press.

7- دي. سي. دينِت، 2003. "تطور الحُرّيَّة"، نيويورك: منشورات دار بنغوين.

المرجع بالإنجليزية:

D. C. Dennett, 2003. Freedom evolves. New York: Penguin.

8- مُراسلات خاصة مع توم كلارك Tom Clark

9- مُراسلات خاصة مع دانيال دينِت Daniel Dennett

10- أشار غالِن ستراوسون Galen Strawson (في مُراسلات خاصة معه) إلى أنه، حتى لو اتفق لمرةٍ مع دينيِت هنا، إلا أن الفكرة الاعتيادية للمسؤولية الأخلاقية لا تزال مُشكلةً عويصةً للأسباب المطروحة آنفًا".

11- وصف دانيال دينِت، في كتابه المُعنون "شرح الوعي Consciousness Explained"، تجربة غير منشورة قام خلالها جرّاح الأعصاب دبليو. جراي والتر W. Grey Walter بوصل القشرة الدماغية الحركية لمرضاه مُباشرةً مع عارض شرائح. وطلب منه تقديم الشرائح على مهلهم، قال أفراد التجربة بأنهم شعروا أن العارض كان يقرأ أذهانهم. ولسوء الحظ، هنالك بعض الشكوك إن كانت التجربة قد أُجرِيَت حقًّا.

12- دي. وينغر، 2002. "وهم الإرادة الواعية"، كامبريدج، ماساشوستس: برادفورد بوكس/ مطبعة معهد ماساشوستس للتقنية.

المرجع بالإنجليزية:

D. Wegner, 2002. The illusion of conscious will. Cambridge, MA: Bradford Books/MIT Press

13- إل. سيلفر، 2006، "الطبيعة الصعبة: صدام العلم والروحانية على الجبهة الجديدة للحياة". نيويورك: إيكو، الصفحة 50.

المرجع بالإنجليزية:

L. Silver, 2006. Challenging nature: The clash of science and spirituality at the new frontiers of life. New York: Ecco, p. 50.

14- لقراءة مُناقشة حصلت مُؤخرًا عن دور الوعي في علم النفس البشري، طالع: آر. أف. باومايستر، وإي. جاي. ماسيكامبو، وكاي. دي. فوهس، 2011. هل تُسبب الأفكار الواعية السلوك؟ "النشرة السنوية لعلم النفس، 62: الصفحات: 331- 361.

المرجع بالإنجليزية:

R. F. Baumeister, E. J. Masicampo, & K. D. Vohs, 2011. Do conscious thoughts cause behavior? Annual Review of Psychology, 62: 331–361.

15- مُجددًا، وكما أشار غالِن ستراوسون (في مُراسلات خاصة معه)، حتى لو ضمنا بأنك تُشكل كامل ذهنك (الواعي واللاواعي)، فإنك لا يُمكنك تحمُّل مسؤولية شخصيتها مُطلقًا.

16- أشار آينشتاين (بعد شوبنهاور) للفكرة نفسها:

صراحةً، لا يُمكنني فهم ما يقصده الناس عندما يتحدثون عن حُرّية الإرادة البشرية. على سبيل المثال، لدي شعورٌ بأني أريد شيئًا ما أو غيره؛ ولكن ما علاقة هذا بحُرّيةٍ لا يُمكنني فهمها إطلاقًا. أشعر برغبةٍ في إشعال غليوني وأفعل ذلك؛ ولكن كيف يُمكنني ربط هذا مع فكرة الحُرّية؟ فعلٌ آخر للإرادة؟ قال شوبنهاور ذات مرة: يُمكن للمرء القيام بما يُريده، ولكن لا يُمكنه أن يُريد ما يُريده. (أم. بلانك، 1932، "إلى أين يذهب العلم؟" نيويورك: دبليو. دبليو. نورتون وشركاه، الصفحة: 201).

المرجع بالإنجليزية:

(M. Planck, 1932. Where is science going? New York: W. W. Norton & Company, p. 201.)

17- كما أشار جيري كوين (في مُراسلات خاصة معه)، فكرة الحُرّية المُخالفة للواقع غير مُمكنة الاختبار علميًا أيضًا. ما هو الدليل الذي يُمكن وضعه بدايةً لإظهار إمكانية تصرّف المرء بشكلٍ يختلف عمّا حصل في الماضي؟

18- الرابط الإلكتروني:

http://opinionator.blogs.nytimes.com/2011/11/13/is-neuroscience-the-death-of-free-will/.

19- كاي. دي. فوهس وجاي. دبليو. سكولر، 2008. قيمة الاعتقاد بالإرادة الحُرَّة: تشجيع الاعتقاد بالحتمية يزيد من الغشّ. "العُلوم النفسية"، 19 (1):49- 54.

المرجع بالإنجليزية:

K. D. Vohs & J. W. Schooler, 2008. The value of believing in free will: Encouraging a belief in determinism increases cheating. Psychological Science, 19(1): 49–54.

20- آر. إف. باومايستر، إي. جاي. ماسيكامبو، وسي. أن. ديوال، 2009. الفائدة الاجتماعية الإيجابية للشُعور بالحُرّية: إنكار الإرادة الحُرَّة يزيد من العدوانية ويُقلّص النفع. "نشرة علم النفس الشخصي والاجتماعي، 35: 260- 268.

المرجع بالإنجليزية:

R. F. Baumeister, E. J. Masicampo, & C. N. DeWall, 2009. Prosocial benefits of feeling free: Disbelief in free will increases aggression and

reduces helpfulness. Personality and Social Psychology Bulletin, 35: 260–268.

21- جاي. دايموند، 2008. الانتقام يخُصّنا. صحيفة "ذا نيويوركر"، 21 نيسان (أبريل) 2001، الصفحات: 74- 78.

المرجع بالإنجليزية:

J. Diamond, 2008. Vengeance is ours. The New Yorker, April 21, 2001, pp. 74–87.

22- مُراسلات خاصة مع ستيفن بينكر Steven Pinker.

مُؤلف كتاب "نهاية الإيمان" أكثر الكُتُب مبيعًا وفق صحيفة نيويورك تايمز.

إطراءٌ سابق على كتاب "الإرادة الحُرة"

"نجد في هذا الكتاب الرائع والمستفز أن سام هاريس يُبيِّن- مع وحشيةٍ فكرية مُثيرة للإعجاب- أن الإرادة الحُرَّة عيبٌ مُتأصِّل ومفهومٌ مُفكك، حتى على مُستوى ذاتي. وإذا كان ذلك صحيحًا، فإن الكتاب سيُغير جذريًا الطريقة التي نرى بها أنفسنا كبشر".

في. أس. راماشاندران، V. S. Ramachandran، مُدير مركز الدماغ والإدراك، مُؤلف كتاب "الدماغ الواشي The Tell-Tale Brain".

"بارع وذكي، وليس أقل من أن يقال عنه ثاقب الفكر، يُبين لنا كتاب الإرادة الحُرَّة أنه يُمكن لسام هاريس أن يقول في 13 ألف كلمة أكثر مما يُمكن لمعظم الناس قوله في 100 ألف كلمة".

أوليفر ساكس Oliver Sacks

"إن الإرادة الحُرَّة وهمٌ مُقنعٌ للغاية؛ لدرجة أن البشر يرفضون ببساطة الاعتقاد بأننا لا نمتلكها، يجمع سام هاريس في كتاب الإرادة الحُرَّة، ما بين عِلْمَي الأعصاب والنفس للقضاء على هذا الوهم قضاءً مُبرمًا. وكما مُعظم كُتب هاريس، لن يُسبب لك هذا الكتاب القلق وحسب، بل سيجعلك تُفكر بعُمق. اقرأه: لا بدّ لك من ذلك".

جي أيه. كوين Jerry A. Coyne، أستاذ علم البيئة والتطور، جامعة شيكاغو، ومُؤلف كتاب "لماذا التطور صحيح Why Evolution Is True"

"يقول الكثيرون أنهم يعتقدون بأن من المستحيل عدم وجود إرادة حُرَّة، وإلا فإنّ عدم وجودها سيسببُ العدمية واليأس. يُقدم لنا سام هاريس، في هذه المقالة المثيرة والشخصية، نفسه مثالًا عن قلبٍ غير مُستغرقٍ في التفكير، وأنه أكثر حساسية وإبداعًا من الناحية الأخلاقية، لأن هذه الساحرة الشريرة تحديدًا ميتة".

أوين فلاناغان Owen Flanagan، أستاذ الفلسفة في جامعة ديوك، ومُؤلف كتاب "المشكلة العويصة The Really Hard Problem"

"إذا كُنت مُؤمنًا بالإرادة الحُرَّة، أو تعرف شخصًا يُؤمن بها، فستجد العلاج الشافي هنا. يُجادل سام هاريس، في هذا الكتاب الذكي والجذاب والصغير وسهل القراءة للغاية، بأن الإرادة الحُرَّة غير موجودة، وبأننا في حالٍ أفضل إن علمنا بأنها غير موجودة، وبأنه حالما نُفكر بها بالطريقة الصحيحة، فإنّ بإمكاننا أن نُدرك بأنها غير موجودة من خلال تجربتنا الشخصية. إنه نقاشٌ لطيفٌ من أحد ألمع العُلماء حولنا".

بول بلوم Paul Bloom ، أستاذ علم النفس في جامع ييل، ومُؤلف كتاب "كيف تعمل السعادة How Pleasure Works"

كُتب أخرى لسام هاريس:

نهاية الإيمان The End of Faith

رسالة إلى أمة مسيحية Letter to a Christian Nation

المشهد الأخلاقي The Moral Landscape

الكذب Lying